حياتي

بقلم

على باشا مبارك

علق عليه وأعد فهارسه

عبد الرحيم يوسف الجمل

مدرس مساعد بكلية التربية بورسعيد

الناشر

مكتبة الآداب

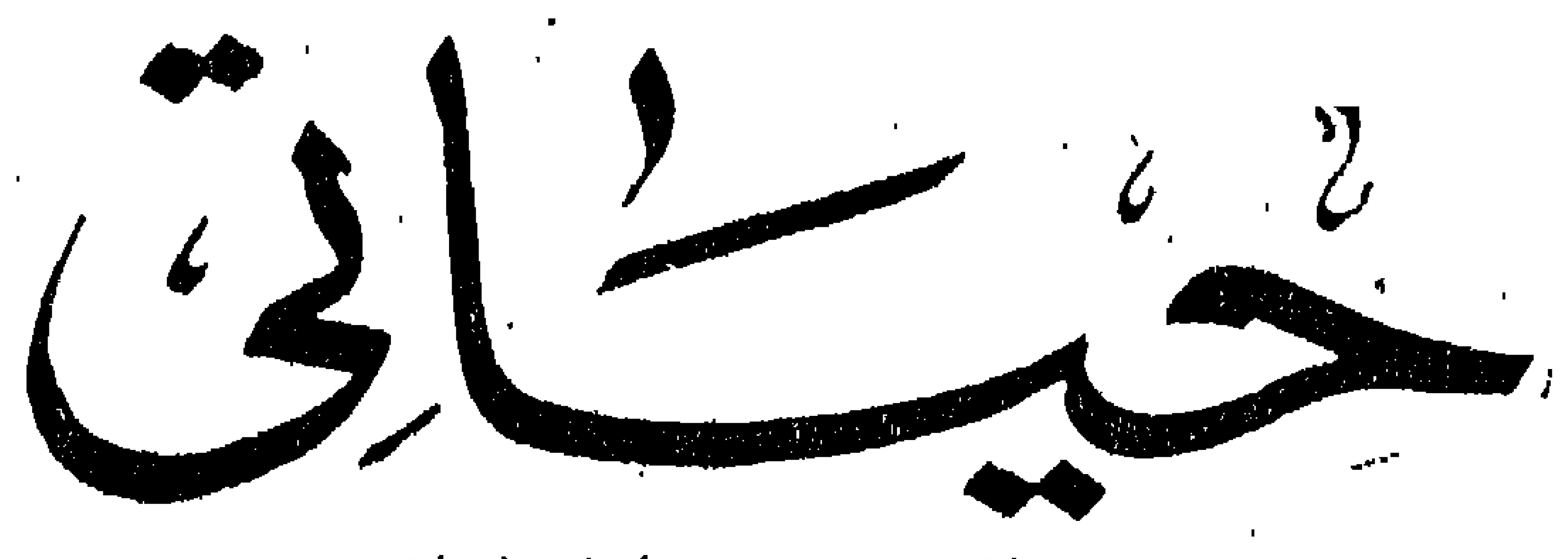
٤٢ ميدان الأوبرا بالقاهرة

ت: ٣٩٠٠٨٦٨

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية



[سيرة المرحوم علي مبارك باشا]

بقلم

علي باشا مبارك

علق عليه وأعد فهارسه

عبد الرحيم يوسف الجمل

مدرس مساعد بكلية التربية ببورسعيد

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٣٩١٩٣٧٧
٤٢ ميدان الأوبرا ت ٣٩٠٠٨٦٨
المطبعة النموذجية
٩ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن قرية برنبال(١) الجديدة هي مسقط رأسي وبها نشأت ، وكانت ولادتي في سنة ١٢٣٩ هجرية(*) كما أخبرني بذلك أبي وأخي الأكبر المرحوم الحاج محمد المتوفى في شهر رمضان سنة ١٢٩٣ . ووالدي هو مبارك بن مبارك بن سليمان بن إبراهيم الروجي . ذكر لي أخي المذكور أن جدنا الأعلى من ناحية الكوم والخليج قرية على بحر طناح(٢) . وبسبب فشل كبير حصل في البلد تشتتت عائلتنا في البلاد ، فمنهم من أقام بناحية دموه(٣) وهم عائلة البحالصة ، ومنهم من أقام بناحية المواامنة(٤) ، ولم يبق منهم بالبلدة الأصلية إلا أولاد غيطاس ، وأقام جدنا الأكبر إبراهيم الروجي بناحية برنبال الجديدة مكرماً معظماً ، فكان هو إمامها وخطيبها وقاضيها ؛ وبعد موته عقبه ولده سليمان على وظيفته ، وعقب سليمان ابنه مبارك ، ولما رزق مبارك ، الذي هو الجد الأدنى ، بأبي سماه باسمه ، ونشأ على وظيفة آبائه وأجداده ، وهكذا أكثر العائلة ، فلذا كانت تعرف في البلد إلى الآن

---

(١) إحدى قرى مركز دكرنس بمحافظة الدقهلية (أنظر: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية القسم الثاني جا ص ٢٣٩ .

(*) سنة ١٨٢٤ ميلادية .

(٢) من قرى مركز المنصورة محافظة الدقهلية (السابق ١/٢٢١) .

(٣) من قرى مركز دكرنس محافظة الدقهلية (١/٢٣٣) .

(٤) من قرى مركز دكرنس واسمها الحالي (ميت الخولي مؤمن) (السابق ١/٢٣٥) .

بعائلة المشايخ . وهى عائلة كثيرة الفروع بحيث إن فى البلد حارة كاملة تحتوى على نحو مائتى نفس ، ولهم بها وظيفة القضاء والخطبة والإمامة وعقود الأنكحة والكيل والميزان . وكانت لهم رزقة(۱) بلا مال ولم يكن عليهم شيء مما على الفلاحين ، ولا لهم علائق عند حكام الجهات ، وبقوا على ذلك إلى أن حصل ضعف أكثر أهل الناحية عن فلاحة الأرض ، وانكسرت عليهم أموال الديوان(۲) فرمى الحكام على هذه العائلة مقدارا من الأطيان ، وطلبوا منهم أموالها المنكسرة عليها ، وضربوا عليهم بعض ضرائب ، وشددوا فى خلاصها بالسجن والضرب كأسوة الفلاحين ؛ فضاق خناقهم من ذلك لعدم اعتيادهم الإهانة ، وبعد بذلهم ما بأيديهم ، وبيعهم المواشى وأثاث البيوت ، رأوا أن لا ملجأ لهم من ذلك إلا الفرار، ففارقوا البلد وتفرقوا فى البلاد ، فنزل والدى بقرية الجاديين(۳) (من بلاد الشرقية) وعمرى إذ ذاك نحو ست سنين . وقبل رحلتنا كنت ابتدأت فى تعلم القراءة والكتابة على رجل من برنبال أعمى يسمى أبا عسر قد توفى بعد ذلك . ولعدم إكرامنا بناحية الجاديين لم يطب لنا المقام بها ، فلم نلبث فيها إلا قليلا ، وارتحلنا منها إلى عرب السماعنة بالشرقية أيضاً ، وهم من عرب الخيش(٤) ، ولم يكن عندهم فقهاء ، فأنزلوا والدى منزل الإكرام والإجلال ، وانتفعوا منه وانتفع منهم انتفاعا كبيراً ، وصار مرجعهم إليه

(۱) الرزقة : بفتح الراء وتشديدها : أرض أو غيرها مما يغل ريعاً .
(۲) الديوان : الدفتر تقيد فيه الديون والضرائب .
(۳) من قرى مركز فاقوس محافظة الشرقية . انظر القاموس الجغرافى القسم الثانى ١/١٢٠ .
(٤) أى أنهم يسكنون الأخبية والخيام ، لم يقيموا بيوتاً ، ولم يرفعوا بنيانا .

فى الأحكام الدينية ، وكان رجلا صالحا دينا متفقها حسن الأخلاق ، فأحبوه حبا شديدا وبنوا جامعا جعلوه إمامه .

ولما ارتاح خاطره وانزاحت عنه الشدائد ، التفت إلى تربيتى ، فعلمنى أولاً بنفسه ، ثم أسلمنى لمعلم اسمه الشيخ أحمد أبو خضر من ناحية الكردى قرية بقرب برنبال ، وكان مقيما فى قرية صغيرة قريبة من مساكن هؤلاء العرب ، وجعل الوالد يرسل لى كفايتى عنده ، وكنت لا أذهب إلى بيتنا إلا كل جمعة . ومن خوفى منه كنت لا أعود إليه فارغ اليد ، فأقمت عنده نحو سنتين ، فختمت القرآن بداءة ، ثم لكثرة ضربه لى تركته وأبيت أن أذهب إليه بعد ذلك . وجعلت أقرأ عند والدى ، إلا أنى لكثرة أشغاله واشتغاله عنى تعلقت باللعب والتفريط فنسيت ماحفظته ، فخشى والدى عاقبة ذلك ، فهمّ بجبرى على الذهاب إلى هذا المعلم ، فاستعصيت ونويت الهرب إن لم يرجع عنى . وكان لى من الأخوات سبع بنات شقيقات ؛ ولم يكن لوالدتى من الذكور غيرى ، ولى إخوة ذكور من غير أمى ، فلما أدركوا منى نية الهرب أشفقوا من ذلك وحنوا إلىّ ، وسألونى عن مرغوبى فى التربية ، إذ لا يصح بقاء الشخص بلا تربية ، فاخترت أن لا أكون فقيها بهذه المثابة ، وإنما أكون كاتبا لما كنت أرى للكتاب من حسن الهيئة والهيبة والقرب من الحكام . وكان لوالدى صاحب من الكتاب كان كاتب قسم ، وإقامته بناحية الأخيوة ؛ فأسلمنى إليه ، فرأيته رجلا حسن الهيئة نظيف الثياب جميل الخط ، فأقمت عنده مدة ، ولى من والدى مرتب يكفينى ، فدخلت بيته وخالطت عياله ، فإذا هو بجمل الظاهر فقير فى بيته ، وله ثلاث زوجات وعيال ، على قلة من الزاد ، فكنت فى غالب أيامى أبيت طاويا(١) من الجوع . وكان أغلب تعليمه إياىَ على قلته

(١) من طوى البطن إذا ضمر وانكمش من الجوع .

فى البيت أمام نسائه ، وكان خروجه إلى السرحة قليـــلا ، وإذا خرج يستصحبنى معه فلا أستفيد إلا خدمتى له ، ومع ذلك فكان يؤذينى دائما . إلى أن كنا يوما فى قرية المناجاة ، فسألنى أمام الناظر وجماعة حضور عن : الواحد فى الواحد ، فقلت له باثنين فضربنى بمقلاة(١) بن فشجنى فى رأسى، فلامه الحاضرون ، وذهبت إلى والدى أشكو إليه ، فلم أنل منه إلا الأذية . وكان يومئذ مولد سيدى أحمد البدوى ، فهربت مع الناس قاصدا المطرية (جهة المنزلة) لألحق بخالة لى هناك ، فمرضت بالريح الأصفر فى طريقى بقرية صان الحجر(٢)، فأخذنى رجل من أهلها لا أعرفه ، فمكثت على ذلك عنده أربعين يوما ، وقد سألونى عن أهلى ، فقلت : أنا يتيم مقطوع . وكان والدى فى تلك المدة وأحد إخوتى يفتشان علىّ فى البلاد، فاستدل علىّ فى صان، فلما رأيته من بعد هربت، ونزلت بمنية طريف(٣)، فأخذنى رجل عربى ، ولم أقم عنده إلا قليلا حتى هربت منه ، ولحقت بأخ لى فى بلدتنا برنبال ، وكان قد رجع إليها، وبعد أيام قدم إلينا أخى الذى كان يفتش علىّ، فأخذنى بالحيلة إلى والدى، وقد أشكل عليهم أمرى، وذهبوا كل مذهب فى كيفية تربيتى، وما يصنعون بى ، وجعلوا يعرضونه علىّ القراء والكتاب فلم أقبل ، وقلت : إن المعلم لا أستفيد منه إلا الضرب ، والكاتب لا يفيدنى إلا الضياع والأذية ويستفيد منى الخدمة .

ثم عرض علىّ والدى أن يلحقنى بصاحب له من كتبة المساحين(٤) ، فرضيت بذلك ، فلما عاشرته رغبت فى عشرته لما كنت أكتسب من صحبته

---

(١) المقلاة : عود كبير يضرب به الصبى ويقلب به البن لينضج ويقلى .

(٢) من قرى مركز فاقوس محافظة الشرقية «القاموس الجغرافى القسم الثانى ١١٦/١» .

(٣) من قرى مركز دكرنس محافظة الدقهلية «السابق ٢٣٧/١» .

(٤) المساح : من حرفته قياس الأرض .

من النقود التي تنالني مما يأخذه من الأهالي ، فأقمت عنده ثلاثة أشهر ، ولكنني لصغر سني وعدم معرفتي بما ينفع وما يضر ، كنت أفشي سره وأخبر عما يأخذه من الناس ، فطردني ، فبقيت في بيتنا أقرأ على أبي ، ويستصحبني في قبض الأموال الأميرية التي على العرب (وكان منوطا بذلك) فكنت أباشر الكتابة وبعض المحاسبات . ثم بعد نحو سنة جعلني مساعدا عند كاتب في مأمورية أبي كبير(١) بماهية خمسين قرشاً أبيض(٢) له الدفاتر ، فأقمت عنده نحو ثلاثة أشهر ، وقد خلقت(٣) ثيابي وساءت حالي ولم أقبض شيئاً من الماهية إلا الأكل في بيته ، ثم عينني يوماً لقبض حاصل أبي كبير ، فقبضته وأمسكت عندي منه قدر ماهيتي ، وكتبت له علماً بالواصل ، ووضعته في كيس النقدية . فلما وقف على ذلك اغتاظ مني وأسرها في نفسه .

وكان مأمور أبي كبير يومئذ عبد العال أبا سالم من منية الغروط(٤) فأخبره بذلك ، واتفق(٥) أن المأمورية مطلوب منها شخص في العسكرية ، فأغراه بي واتفقا على إلحاقي بالجهادية(٦) لسداد هذه الطلبة ، فنادوني على حين غفلة ، وأمرني المأمور بالذهاب إلى السجن لكتب المسجونين ، وأصحبني رجلا من أغوات(٧) المأمورية ، فلما دخلت السجن أحضروا غُلاً(٨) من الحديد ووضعوه في رقبتي وتركت مسجونا . فداخلني ما لا مزيد عليه من الخوف ، فلبثت في السجن بضعا وعشرين يوما في أوساخ المسجونين

---

(١) من قرى مركز كفر صقر بمحافظة الشرقية السابق ١٢٦/١ .

(٢) أي أعيد كتابتها بنظام . (٣) استهلكت .

(٤) من قرى مركز فاقوس محافظة الشرقية (السابق ١١٤/١) .

(٥) تصادف . (٦) الجيش .

(٧) جمع أغا كلمة في اللغتين التركية والفارسية ، تطلق على السيد أو الرئيس أو الحاكم أو الوصي . (٨) طوقاً ، قيداً

وقاذوراتهم ، وصرت أنتحب ، فرق لى السجان لصغر سنى ، فقربنى إلى الباب ، وواسيته بشيء من النقود التى كانت سبب سجنى ، وكنت أرسلت إلى والدى بحبسى ، فذهب إلى العزيز(١) وكان بناحية منية القمح(٢) وقدم له قصتى فى عريضة ، فكتب بإخلاء سبيلى ، وأخذ والدى الأمر بيده ، وقبل حضوره إلىّ أتى إلى السجان صاحب له من خدمة مأمور زراعة القطن بنواحى أبى كبير ، وأخبره أن المأمور محتاج إلى كاتب يكون معه بماهية ، وكان السجان يميل إلىّ فدله علىّ ، ووصفنى له بالنجابة وحسن الخط ، وعرفه مسكنتى وما أنا فيه ، فجاء الخادم إلىّ ، وطلب منى أن أكتب خطى فى ورقة ليراها المأمور ، فكتبت عريضة واعتنيت فيها ، وناولتها للخادم مع غازى(٣) ذهب قيمته عشرون قرشاً ليمهد لى الطريق عند مخدومه ، ووعدته بأكثر من ذلك أيضاً ، فأخذها ، وبعد قليل حضر بأمر الإفراج عنى ، وأخذنى معه حتى قربت من المأمور ، وكان يسمى عنبر أفندى ، فنظرت إليه فإذا هو أسود حبشى كأنه عبد مملوك ، لكنه سمح جليل مهيب ، ورأيت مشايخ البلاد والحكام وقوفا بين يديه وهو يلقى عليهم التنبيهات ، فتأخرت حتى انصرفوا فدخلت عليه وقبلت يده ، فكلمنى بكلام رقيق عربى فصيح ، وقال لى : تريد أن تكون معى كاتبا ولك عندى جراية(٤) كل يوم وخمسة وسبعون قرشاً ماهية كل شهر ؟ فقلت : نعم . ثم انصرفت من أمامه وجلست مع الخدامين ، وكنت أعرف من المشايخ الذين كانوا بين يديه جماعة من مشاهير البلاد أصحاب الثروة والخدم

---

(١) العزيز : لقب لحاكم مصر (محمد على باشا) آنذاك أو الحاكم من قبله .
(٢) مركز بمحافظة الشرقية (السابق ١٣٦/١ : ١٥٢) .
(٣) غازي : عملة عثمانية .
(٤) الجراية « بكسر الجيم » : الجارى من الرواتب .

والحشم والعبيد ، فاستغربت مارأيته من وقوفهم بين يديه وامتثالهم أوامره ، وكنت لم أرمثل ذلك قبل ولم أسمع به ؛ بل أعتقد أن الحكام لا يكونون إلا من الأتراك على حسب ما جرت به العادة فى تلك الأزمان، وبقيت متعجبا متحيرا فى السبب الذى جعل السادة يقفون أمام العبيد ويقبلون أيديهم ، وحرصت كل الحرص على الوقوف على هذا السبب ، فكان ذلك من دواعى ملازمتى له . وفى ثانى يوم حضر والدى بأمر العزيز فسلمت عليه ، وأدخلته على المأمور وعرفته إياه ، فبش فى وجهه وأجلسه وأكرمه ، وكان والدى جميل الهيئة أبيض اللون فصيحا متأدبا ، آثار الصلاح والتقوى ظاهرة عليه ، فكلمه فى شأنى ، فقال له «إنى قد اخترته ليكون معى وجعلت له مرتبا فإن أحببت فذاك» فشكر له والدى ورضى أن أكون معه، وذكر له أصولنا وأرومتنا، وانصرف من مجلسه مسرورا .

ولما سهرت مع والدى ليلا جعلت كلامى معه فى هذا المأمور، فقلت له : هذا المأمور ليس من الأتراك لأنه أسود ؟ فأجابنى بأنه يمكن أن يكون عبدا عتيقا . فقلت : هل يكون العبد حاكما مع أن أكابر البلاد لا يكونون حكاما فضلا عن العبيد ؟! فجعل هو يجيبنى بأجوبة لا تقنعنى، فكان يقول : لعل سبب ذلك مكارم أخــــلاقه ومعرفته ؟ ، فأقول : وما معرفته ؟ فيقول : لعله جاور بالأزهر(١) وتعلم فيه . فأقول: هل التعلم فى الأزهر يؤدى إلى أن يكون الإنسان حاكما ؟! ومن خرج من الأزهر حاكما ؟ فقال: ياولدى كلنا عبيد الله ، والله تعالى يرفع من يشاء ! فأقول : « مسلم، لكن الأسباب لا بد منها . . » وجعل يعظنى ويذكر لى حكايات وأشعارا لم أقنع بها ، ثم أوصانى بملازمته وامتثال أوامره، وبعد يومين سافر عنى وتركنى عنده .

---

(١) جاور بالأزهر : أى جلس فيه ليتلقى العلم على علمائه .

ثم حدثت لى فكرة أخرى مع الفكرة الأولى، فكنت أقول فى نفسى إن الكتابة والوظيفة (الماهية) كانت هى السبب فى سجنى ووضع الحديد فى رقبتى ، وقد وجدت هذا المأمور خلصنى من ذلك ، فلو فعل المأمور معى مثل ما فعل الكاتب فمن يخلصنى ؟ واستمرت الفكرتان فى بالى وصار همى التخلص من كل ذلك ومن أمثاله ، ووددت أن أكون بحالة لاذل فيها ولا تخشى غوائلها(١) . وفى أثناء ذلك اصطحبت بفراش له ، فجعلت أفحص منه عن أخبار سيده وأسباب ترقيه ، وكنت أسترق منه ذلك استراقا بحيث أخلل هذا الكلام بغيره ، فأخبرنى أن سيده مشترى(٢) ست من الستات الكبار مرعيات الخواطر ، أدخلته سيدته مدرسة قصر العينى لما فتح العزيز المدارس وأدخل فيها الولدان ، وأخبرنى أنهم يتعلمون فيها الخط والحساب واللغة التركية وغير ذلك ، وأن الحكام إنما يؤخذون من المدارس . فحينئذ حاك فى صدرى أن أدخل المدارس، وسألته هل يدخلها أحد من الفلاحين ؟ فأفادنى أنه يدخلها صاحب الواسطة ، فشغل ذلك بالى زيادة ، ومع ذلك فلم تفتر همتى ، وسألته عن قصر العينى وعن طريقه وكيف الإقامة فيه ، فأخبرنى عن ذلك كله ، وأثنى على حسن إقامتهم بها ، ومأكولهم وملبوسهم وإكرامهم ، فازددت شوقا . وكنت أكتب عندى كل ما يخبرنى به من بيان الطريق وقدر المسافة ، وأسماء البلاد التى فى الطريق .

وقامت بنفسى فكرة التخلص والتوصل إلى المدارس ، فطلبت الإذن فى زيارة أهلى ، فأذن لى بخمسة عشر يوما ، فسافرت إلى أن وصلت فى يوم السبت إلى بنى عياض(٣) قرية فى طريقى ، فتقابلت مع جملة أطفال

---

(١) الغوائل : المصاعب والمهالك . (٢) أى اشترته سيدة .

(٣) من قرى مركز ههيا بمحافظة الشرقية . انظر القاموس الجغرافى القسم الثانى جـ ١ ص ١٥٧ .

تحت قيادة رجل خياط ، مع كل واحد دواة وأقلام ، فجلست معهم تحت شجرة ، وتحادثنا ، فظهر لى أنهم تلامذة من مكتب(١) منية العز(٢)، وكان ذلك فألا حسنا، ورأوا خطى فوجدوه أحسن من خطوطهم ، فقال بعضهم لبعض: لو لحق هذا بالمكتب لكان جاويشا(٣) ، فقال الخياط: ذلك قليل عليه ؛ فإن خط الباشجاويش الذى عندنا لا يساوى هذا الخط ، فسألتهم : ما الجاويش؟ وما الباشجاويش ؟ فأفادونى أنهم المقدمون فى المكتب ، فجعلت أستفهم عن المكتب وصفته ، وجعل الخياط يحسن لى أوصافه ، ويغرينى على دخوله ، وأفهمنى أن نجباء المكاتب ينتقلون إلى المدارس بلا واسطة ، فرأيت ذلك غاية مرغوبى ، فلم أتأخر عن الذهاب معهم ، ودخلت المكتب فإذا ناظره من معارف والدى ، فأراد أن يمنعنى من الانتظام فى عقد التلامذة ، واجتهد فى ذلك لمراضاة والدى ، فلم أسمع كلامه ، وبقيت فى المكتب خمسة عشر يوما ، وكان الناظر قد أرسل إلى والدى ، فلما جاءه قص عليه خبرى وأراه أنى راغب جداً وأنى قلت له إن لم يكتبنى فى المكتب اشتكيته ، ثم دبر معه حيلة على أخذى على حين غفلة منى ومن التلامذة ، فانتظر خروجنا للفسحة والأكل فى وقت الظهر ، فاختطفنى والدى إلى بلدتنا ، وحبسنى فى البيت نحو عشرة أيام ، كل ذلك ووالدتى تبكى منى وعلىّ وتستعطفنى للرجوع عما يوجب فراقهم وتحلفنى أن أرجع عن تلك النية ، فوعدتها بالرجوع عن ذلك إرضاء لخاطرها ،

---

(١) المكتب : الكتّاب يتعلم فيه الصبية القرآن والكتابة .

(٢) من قرى مركز فاقوس بمحافظة الشرقية ، واسمها الحالى ميت العز (السابق جا ص ١٨٨) .

(٣) الجاويش : أصلا رتبة فى الجيش ولكنها هنا تدل على أكبر الصبية وأنبههم .

فأطلقونى. وكانت لنا غنيمات صرت أرعاها، وأبعدونى عن حرفة الكتابة التى ربما تكون سببا لفراقهم، فبقيت كذلك مدة حتى اطمأن خاطرهم، وظنوا أن فكرتى ذهبت عنى مع أنها لا تفارقنى، وإنما كنت أخفيها، إلى أن انتهزت فرصة فى ليلة من الليالى، فصبرت إلى أن ناموا جميعاً، وأخذت دواتى وأدواتى وخرجت من عندهم خائفا أترقب، وتوجهت تلقاء منية العز، وكان ذلك آخر عهدى بسكناى بين أبوى، وكانت ليلة مقمرة، فمشيت حتى أصبحت فدخلت منية العز ضحى(١)، ولم يرنى الناظر إلا وأنا مع الأطفال فى داخل المكتب، والتزمت أن لا أخرج منه ليلا ولا نهارا مخافة اختطافى. ثم حضر والدى وعمل طرق التحيل علىّ هو والناظر فلم ينجع(٢) ذلك فى، ورجع بلا حاجته، وجعل يتردد على طمعا فى أخذى من المكتب حتى جاء ناظر مكتب الخانقاه(٣) عصمت افندى لفرز نجباء التلامذة إلى قصر العينى، فكنت ممن اختير لذلك. فحضر والدى واشتكى لعصمت افندى، فقال له: هذا ابنك أمامك وهو مخير، فخيرونى فاخترت المدارس، فعند ذلك بكى والدى كثيراً وأغرى علىّ جماعة من المعلمين وغيرهم ليستميلونى فلم أصغ لهم، وكان ما قدّر الله ولا راد لما قدّره.

فدخلت مدرسة قصر العينى فى سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف(٤) وأنا يومئذ فى سن المراهقة، وصرت فى فرقة يرعى افندى، فوجدت المدارس على خلاف ما كنت أظن، بل بسبب تجدد(٥) أمرها كانت واجبات الوظائف مجهولة فيها، والتربية والتعليمات غير معتنى بها، إذ كان جل اعتنائهم بتعليم المشى العسكرى، فكان ذلك فى وقت الصبح والظهر وبعد

---

(١) الضحا: وقت ارتفاع النهار وامتداده.

(٢) ينجع: يكون له تأثير. (٣) الخانقاه: رباط الصوفية.

(٤) سنة ١٨٣٩ ميلادية. (٥) تجدد: حداثة.

الأكل وفى أماكن النوم . وكان جميع المشرفين على التلامذة يؤذونهم بالضرب وأنواع السب والإهانة من غير حساب ولا حرج ، مع كثرة الأغراض والإعراض عن الاعتناء بشؤونهم مما يختص بالمأكولات وخلافها ، وكانت مفروشاتهم حصر الحلفاء وأحرمة(١) الصوف الغليظ من شغل بولاق . ومن كراهتى للطبيخ المرتب لنا جعلت إدامى(٢) الجبن والزيتون . وكان برعى افندى يراعينى بالنسبة لغيرى ، وكان معى قليل من النقود جعلته أمانة تحت يده .

فلما رأيت هذه الحالة ضقت ذرعاً وظننت أنى جنيت على نفسى فى دخول المدارس التى بهذه المثابة ، ثم لتغير الهواء المعتاد وكثرة ما قام بى من الأفكار اعترتنى الأمراض وطفح الجرب على جسمى ، فأدخلونى المستشفى ، فتراكمت على الأمراض حتى أيسوا من حياتى ، ولكن الله سلم. وفى أثناء ذلك حضر والدى وطلب أن يرانى فلم يمكنوه من الدخول ، فجعل لبعض الممرضين خمسين محبوبا(٣) من الذهب جعلا(٤) على أن يخرجنى من الاسبتالية(٥) سراً ليخلصنى مما أنا فيه ، فلم أشعر إلا والممرض قد كسر شباك الحديد من المحل الذى أنا فيه ، وأخبرنى بمرغوب والدى وأنه واقف ينتظرنى خارج المدرسة ، وأراد أن ينزلنى من الشباك ويوصلنى إليه ليأخذ جعله ، فمالت نفسى لإجابته والذهاب مع والدى وترك المدارس وأهلها لما رأيته من الشدائد وعدم التعليم ، وما لحقنى من الجوع فى المستشفى

---

(١) جمع حرام وهو غطاء من الصوف الخشن رخيص الثمن .
(٢) الإدام : ما يستمرأ به الخبز (غموص) .
(٣) المحبوب من الذهب يساوى أقل من ثلاثة عشر قرشا . انظر : بهجة المشتاق فى بيان ختم زكاة أموال الأوراق - للحسين الشافعى ص ١٢١ .
(٤) جعلا : هبة ، رشوة . (٥) الاسبتالية : المستشفى .

حتى كنت أمص العظم الذى يلقيه الآكلون، لكن فكرت فى عاقبة الهرب، فإنهم كانوا يطلبون من يهرب من التلامذة ويقبضون على أهله ويقيدونهم ويهينونهم، فامتنعت من الخروج معه، فاجتهد فى التحيل على وتسهيل الأمر لدى، فأبيت، وقلت أصبر على قضاء الله وأنا الجانى على نفسى، وقلت له: بلغ والدى السلام وسله أن يدعو لى وأن يبلغ والدتى عنى السلام. ثم إن والدى احتال حتى دخل عندى ورآنى ورأيته، وقبلنى وقبلته، وبكى وبكيت، ثم ودعنى ومضى لسبيله، وله زفرات ولى عبرات، ولسان الحال يقول:

عسى الكرب الذى أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

ثم شفيت وخرجت إلى المدرسة، واشتغلت بدروسى ولم أمرض بعد ذلك.

وفى أواخر سنة اثنتين وخمسين نقلونا إلى مدرسة أبى زعبل عندما جعل قصر العينى لمدرسة الطب خاصة (كما هو الآن)، فكانت إدارة المدارس فى أبى زعبل كما كانت فى قصر العينى، إلا أنه اعتنى بالتعليم شيئاً بسبب جعل نظرها للمرحوم إبراهيم بك رأفت، وكان أثقل الفنون على وأصعبها فن الهندسة والحساب والنحو، فكنت أراها كالطلاسم، وأرى كلام المعلمين فيها ككلام السحرة، وبقيت كذلك مدة إلى أن جمع المرحوم إبراهيم بك رأفت متأخرى التلامذة فى آخر السنة الثالثة من انتقالنا إلى مدرسة أبى زعبل وجعلهم فرقة مستقلة، فكنت أنا منهم، بل آخرهم، وجعل نفسه هو المعلم لهذه الفرقة. ففى أول درس ألقاه علينا أفصح عن الغرض المقصود من الهندسة بمعنى واضح وألفاظ وجيزة، وبيّن أهمية الحدود والتعريفات الموضوعة فى أوائل الفنون، وأن هذه الحروف التى اصطلحوا عليها إنما تستعمل فى أسماء الأشكال وأجزائها كاستعمال الأسماء للأشخاص، فكما أن للإنسان أن يختار لابنه ما شاء من الأسماء، كذلك المعبر عن الأشكال له

أن يختار لها ماشاء من الحروف . فانفتح من حسن بيانه قفل قلبى ووعيت مايقول . وكانت طريقته هى باب الفتوح[1] على، ولم أقم من أول درس إلا على فائدة ، وهكذا جميع دروسه بخلاف غيره من المعلمين، فلم تكن لهم هذه الطريقة وكان التزامهم لحالة واحدة هو المانع لى من الفهم . فختمت[2] عليه فى أول سنة جميع الهندسة والحساب ، وصرت أول فرقتى ، وبقيت فى النحو على الحالة الأولى لعدم تغير المعلم ولا طريقة التعليم السيئة . وكان رأفت بك يضرب بى المثل ويجعل نجابتى على يديه برهاناً على سوء تعليم المعلمين ، وأن سوء التعليم هو السبب فى تأخر التلامذة .

وفى تلك السنة وهى سنة ٥٥ فرزوا منا تلامذة لمدرسة المهندسخانة(*) ببولاق ، فاختارونى فيمن اختاروه ، فأقمت بها خمس سنين وأخذت جميع دروسها وكنت فيها دائماً أول فرقتى وقلفتها[3]. فتلقيت بها الجزء الأول من الجبر على المرحوم طائل افندى ، وكذا تلقيت عنه علم الميكانيكا وعلم الديناميكا وتركيب الآلات ، وتلقيت الجبر العالى عليه وعلى المرحوم محمد بك أبى سن ، وحساب التفاضل وعلم الفلك على المرحوم محمود باشا الفلكى، وعلم الأدروليك على المرحوم دقلة افندى، وعلم الطوبوغرافيا[4] والثرورزية على المرحوم إبراهيم افندى رمضان ، وعلم الكيمياء والطبيعة والمعادن والجيولوجيا وحساب الآلات على المرحوم أحمد بك فايد ، والهندسة الوصفية وقطع الأحجار وقطع الأخشاب والظل والنظر بعضه

---

(١) الفتوح : جمع فتح وهو النصر والكرامة من الله .

(٢) من ختم القرآن إذا أتم قراءته .

(*) المهندسخانة : لفظ معرب يتكون من مهندس وخانة وهى موضع اجتماع (معربة) .

(٣) يقصد أول فرقته .

(٤) الطوبوغرافيا : علم الملامح العامة لسطح الأرض .

على إبراهيم افندى رمضان ، وبعضه على المرحوم سلامة باشا ، وتلقيت عليه أيضاً خاصة القسموغرافيا(١) . ولعدم وجود كتب مطبوعة فى هذه الفنون وغيرها إذ ذاك ، كان التلامذة يكتبون الدروس عن المعلمين فى كراريس كل على قدر اجتهاده فى استيفاء ما يلقيه المعلمون ، وكان المعلمون يومئذ يبذلون غاية مجهودهم فى التعليم ، فكان يندر أن يستوفى تلميذ فى كراسته جميع ما يلقى إليه خصوصاً الأشكال والرسوم ، ولذلك كان الأمر إذا تقادم أو خرجت التلامذة من المدارس يعسر عليهم استحضار ما تعلموه فكان يضيع منهم كثير مما تعلموه . وفى آخر مدة المهندسخانة كان يطبع بمطبعة الحجر(٢) بعض كتب فاستعانت بها التلامذة وحصل منها النفع ، ثم تكاثر طبع الكتب شيئاً فشيئاً إلى الآن فصارت تطبع الفنون بأشكالها ورسومها ، فسهل بذلك تناولها واستحضار ما فيها .

ثم فى سنة ٦٠ عزم العزيز(٣) على إرسال أنجاله الكرام إلى مملكة فرنسا ليتعلموا بها ، وصدر أمره بانتخاب جماعة من نجباء المدارس المتقدمين ليكونوا معهم وحضر المرحوم سليمان باشا الفرنسى إلى المهندسخانة ، فانتخب عدة من تلامذتها ، فكنت فيهم . وكان ناظرها يومئذ لامبير بك ، فأراد أن يبقينى بالمهندسخانة لأكون معلماً بها ، فعرضت على سليمان باشا أنى أريد السفر مع المسافرين ، وجعل الناظر يحتال على وأحال على الأساتذة ليثبطونى(٤) عن السفر ، وقالوا لى : إن بقيت ههنا تأخذ الرتبة حالا وتترتب لك الماهية ، وإن سافرت تبقى تلميذاً وتفوتك تلك المزية ، ورأيت أن سفرى مع الأنجال مما يزيدنى شرفاً ورفعة واكتساباً للمعارف ، فصممت على السفر مع أنى أعلم أن أهلى فقراء يتشوفون ما عسى أن يعود عليهم

---

(١) علم هيئة الدنيا . (٢) طباعة الحجر أحد أقدم نظم الطباعة .

(٣) يقصد محمد على باشا . (٤) يقنعونى بالعدول .

بالنفع من الوظيفة (الماهية) ، لكن رأيت الكثير الآجل خيراً من هذا القليل العاجل ، فحصل ما أملته والحمد لله .

فسافرنا إلى تلك البلاد ، وجعل مرتبي كل شهر مائتين وخمسين قرشاً كرفقتي، فجعلت نصفها لأهلي يصرف لهم من مصر كل شهر ، وكانت هذه سنتي معهم منذ دخلت المدارس ، فأقمنا جميعاً بباريس سنتين في بيت واحد مختص بنا . ورتب لنا المعلمون لجميع الدروس، والضباط والناظر من جهادية(١) الفرنسية ، لأن رسالتنا كانت عسكرية ، وكنا نتعلم التعليمات العسكرية كل يوم، وهنا نكتة(٢) نذكرها : وهي أن معلومات رسالتنا كانت مختلفة : فبعضنا له إلمام بالتعليمات العسكرية فقط مثل الذين أخذوا من الطوبجية والسواري والبيادة(٣)، والبعض له إلمام بالعلوم الرياضية ولا يعرفون اللغة الفرنسية كالمأخوذين من المهندسخانة الذين أنا منهم ، والبعض له معرفة باللغة الفرنسية ، وكان بعض هؤلاء معلمين فيها بمدارس مصر ، فاقتضى رأي الناظر أن يجعل المتقدمين في الرياضة واللغة الفرنسيه فرقة واحدة وكنت أنا منهم ، وأمر المعلمين أن يلقوا الدروس للجميع باللغة الفرنسية لا فرق بين من يفهم تلك اللغة ومن لا يفهمها، ففعلوا ،وأحالوا غير العارفين بها على العارفين ليتعلموا منهم بعد إعطاء الدروس . فكان العارفون باللغة يبخلون علينا بالتعليم لينفردوا بالتقدم ، فمكثنا مدة لا نفهم شيئاً من الدروس حتى خفنا التأخير ، وتكررت منا الشكوى لتغيير هذه الطريقة وتعليمنا بكلام نفهمه ، فلم يصغ لشكوانا ، فتوقفنا عن حضور الدرس

---

(١) وزارة الدفاع أو الحربية .

(٢) النكتة : المعلومة الطريفة المؤثرة في الفهم .

(٣) الطوبجية والسواري والبيادة : أقسام من الجيش مثل المدفعية والمشاة الخ .. في عصرنا الحالي .

أياما، فحبسونا وكتبوا فى حقنا للعزيز محمد على، فصدر أمره للتنبيه علينا بالامتثال ومن يخالف يرسل إلى مصر محدداً(١). فخفنا عاقبة ذلك، وبذلت جهدى وأعملت فكرى فى طريقة يحصـــل لى منها النتيجة ومعرفة اللغة الفرنسية ، فسألت عن كتب الأطفال ، فنبئونى عن كتاب فاشتريته ، واشتغلت بحفظه ، وشمرت عن ساعد جدى فى الحفظ والمطالعة ، ولزمت السهاد وحرمت الرقاد ، فكنت لا أنام من الليل إلا قليلا حتى كان ذلك ديدناً لى إلى الآن ، فحفظت الكتاب بمعناه عن ظهر قلب . ثم حفظت جزءاً عظيما من كتاب التاريخ بمعناه أيضاً ، وحفظت أسماء الأشكال الهندسية والاصطلاحات ، كل ذلك فى ثلاثة الأشهر الأول . وكانت العادة أن الامتحان فى رأس كل ثلاثة شهور ، وكنت مع ذلك ألتفت للدروس التى تعطيها الأساتذة ، فأثمر الحفظ معى ثمرة كبيرة ، وصرت أول الرسالة كلها بالتداول مع حماد بك وعلى باشا إبراهيم .

ولما حضر إلى مدينة باريس المرحوم إبراهيم باشا(٢) سر عسكر(٣) الديار المصرية ، حضر امتحاننا هو وسر عسكر الديار الفرنسية مع ابن ملكهم، وأعيان فرنسا، وجملة من مشاهير النساء الكبار، فأثنى الجميع علينا الثناء الجميل، وفرقت علينا المكافآت نحن الثلاثة ، فناولنى المرحوم ابراهيم باشا مكافأتى بيده وهى المكافأة الثانية ، وكانت نسخة من كتاب جغرافيا مالطبرون الفرنسى بأطلسها منه هبة . ودعينا للأكل مع سر عسكرنا ابراهيم باشا ، ولما رجع إلى مصر صار يثنى علينا عند العزيز وغيره ، وبعد تمام سنتين تعين الثلاثة الأول من فرقتنا ، وهم: أنا وحماد بك وعلى باشا ابراهيم إلى مدرسة الطوبجية والهندسة الحربية بناحية ميتس من مملكة فرنسا أيضاً

---

(١) أى مكبلا فى الحديد . (٢) ولد سنة ١٧٨٩م وتوفى ١٨٤٨م

(٣) سر : « بفتح السين » أى قائد الجند أو رئيس العسكر .

ر أعطينا رتبة الملازم الثانى ، فأقمنا بها سنتين أيضاً ، وتعلمنا فيها ف‍ـ‍ن الاستحكامات الخفيفة ، والاستحكامات الثقيلة ، والعمارات المائية والهوائية عسكرية ومدنية ، والألغام وفن الحرب وما يلحق به ، مع إعادة جميع ماسبق تعلمنا إياه بتلخيص من المعلمين فى عبارات وجيزة جامعة ، ولم يحصل امتحاننا فى هذه المدرسة إلا فى آخر السنتين ، فكنا فى النمرة الخامسة عشرة من نحو خمسة وسبعين تلميذاً. ثم تفرقنا فى الآلايات(١)، فكنت فى الآلاى الثالث من المهندسين الحربيين ، فأقمت فيه أقل من سنة ، وكان المرحوم إبراهيم باشا يود إقامتنا فى العسكرية حتى نستوفى فوائدها ، ثم نسيح فى الديار الأوربية لنشاهد الأعمال ، ونطبق العلم على العمل مع كشف حقائق أحوال تلك البلاد وأوضاعها وعاداتها ، وكان ذلك نعم المقصد ، ولكن أراد الله غير ما أراد هو ، وتوفى إلى رحمة الله تعالى .

وفى سنة ٦٩ من الهجرة تولى حكومة مصر المرحوم عباس(٢) باشا ، فطلبنا للحضور إلى مصر نحن الثلاثة ، وكان علىّ دين لبعض الافرنج نحو الستمائة فرنك . وكانت الأوامر المقررة أن لا يسافر أحد إلا بعد وفاء دينه ، وأن من يأتى منا إلى مصر مَدينا يوضع فى اللبمان(٣)، فوقعت فى أمر خطير ، وبقيت متحيراً ، وطلبت من رفقتى أن يسلفونى فقالوا ما عندنا ما نسلفك إياه ، وأنا أعلم تيسر بعضهم واقتدارهم ، فقعدت فى محل إقامتى أفكر فيما أصنع ، وإذا بصاحب لى من الافرنج دخل على يدعونى للأكل عنده حيث إنى مسافر ، فوجد حالى غير ما يعهد ، فسألنى فأخبرته ، فقال : « لا تحزن، قل ياسيد يا بدوى يا من تجيب الأسير خلصنى مما أنا فيه »(٤)،

---

(١) جمع آلاى وهو فرقة من الجيش .

(٢) ولد سنه ١٨١٣ م وتوفى سنة ١٨٥٤ م .

(٣) اللبمان : السجن .

(٤) هذا القول من الفرنسى ربما كان على سبيل التخفيف أو المداعبة.

فقلت له : ليس الوقت وقت هزل . فقال : هذا أمر هين لا يهمك ، ثم ذهب فغاب قليلا ورجع إلى بكيس رماه أمامى، فإذا فيه قدر الدّين مرتين وقال لى : بعد استقرارك بمصر وتيسر أمرك ترسل إلى وفاءه ، ولم يأخذ منى سنداً بوصول المبلغ ، وقال : أنا أكتفى بالقول منك ، وقد كان . وحضرنا إلى مصر فى تلك السنة ، وأرسلت إليه المال على يد قنصل فرنسا بعد مدة . ومن حينئذ بطل المكتب الذى خصصه العزيز للتلامذة فى بلاد أوربا ، وبطلت الرسالة المصرية ومن بقى هناك كان فى المدارس الفرنسية تحت نظارتهم بمصروف على الحكومة .

ولما جئنا إلى مصر مكثنا جملة أيام لا ندرى مايفعل بنا ، ثم طلبنا إلى طرف حسن باشا المناسترلى وهو الكتخدا(١) يومئذ ، وأحسن إلينا نحن الثلاثة دون غيرنا برتبة يوزباشى أول ، وتعينت أستاذاً بمدرسة طرا(٢)، وتعين على باشا إبراهيم وحماد بك فى آلاى الطوبجية بطره أيضاً ، وتعين الذين كانوا بمدرسة أركان حرب الفرنسية فى معية رئيس رجال أركان حرب سليمان باشا الفرنسى برتبتهم الأولى وهى رتبة الملازم ، ورفت الباقون ، ثم فرزت تلامذة المدارس ، وتشكلت مدرسة المفروزة من متقدمى تلامذة جميع المدارس ، ولم يبق بمدرسة طره إلا جماعة قليلون متقدمون فى السن قد أزمنوا فى المدرسة ، وكان ناظرها يومئذ برنستوبك من ضباط طوبجية فرنسا المعروفين . وكان رجلا رقيق الطبع حسن الأخلاق حسن التدبير حسن القيام بوظائفه ، فأحضرنى مع باقى المعلمين، وقال لنا إن التلامذة الباقين صاروا إلى ما ترون من قلة العدد وكبر السن وطول المدة ، وأخاف أن ذلك يدعوكم إلى التكاسل ، لكنى أرجوكم كما هو الواجب عليكم أن تبذلوا الجهد معهم زيادة حتى تستميلوهم إلى الاستفادة

(١) نائب أو وكيل .

(٢) يقصد طره، ضاحية من ضواحى القاهرة على الشاطىء الشرقى للنيل .

على قدر الإمكان ، وأملي أن هذه الحالة لا تدوم ، وعما قليل تستقيم الأحوال ، وعليّ وعليكم أن نقوم بواجب الامتثال وأداء ما علينا. ثم قال لي: خصوصاً انك قد اشتغلت بفن الهندسة الحربية ، وقد بلغني أن جاليس بك يرغب أن تكون معه ، وألح كثيراً في طلبك ، ولم يجب إلى مرغوبه ، وأظن أن الأمر يئول إلى إلحاقك به ، فلا تضجر واصبر، فعاقبة الصبر خير، والآن ما عندك إلا تلميذ واحد ، وعن قريب ألحق لك به غيره » فشكرناه على نصيحته ، وانصرفنا واشتغل كل منا بما نيط به .

وفي تلك المدة تأهلت(١) بكريمة معلمي في الرسم بمدرسة أبي زعبل. وكان أبوها قد مات ، وصارت إلى حالة الفقر. فتزوجت بها لما كان لوالدها على من حق التربية والمعروف . ثم حدثتني نفسي أن أستأذن لزيارة أهلي بعد هذه الغيبة الطويلة ، فكلمت الناظر في ذلك ، فقال لي : إن من يسافر يقطع نصف ماهيته ، وأنت الآن محتاج إليها ، فالأحسن أن تصبر حتى أكلم سليمان باشا الفرنسي ليأخذك معه في مأمورية اكتشاف البحيرة والسواحل، فإذا حصل ذلك يتم مرغوبك بسهولة . وقد حصل ، وأخذت المأمورية وسافرت معه . ولما كنا بدمياط انفصلت عنه في جهة من المأمورية ، وبعد أن مسحت(٢) البحيرة وحررت جريدتها(٣) ورسمها، ذهبت إلى بلدتنا برنبال ، وكان أهلي قد رجعوا إليها قبل ذلك بمدة ، فوجدت أن أبي قد سافر إلى مصر لزيارتي ولم أجد في المنزل إلا والدتي وبعض إخوتي، وكان دخولي عليهم ليلا ، فطرقت الباب ، فقيل : من أنت ؟ فقلت : ابنكم علي مبارك . وكانت مدة مفارقتي لأمي أربع عشرة سنة لم ترني فيها ولا سمعت صوتي ، فقامت مدهوشة إلى ما وراء الباب ، وجعلت تنظر وتحد النظر،

---

(١) تزوجت . (٢) قست البحيرة أو استكشفت معالمها .
(٣) دونت بياناتها .

وكنت بلباس العسكرية الفرنسي لابساً سيفاً وكسوة تشريف، وكررت السؤال حتى علمت صدقى، ففتحت الباب، وعانقتني ووقعت مغشياً عليها ثم أفاقت وجعلت تبكي وتضحك وتزغرد، وجاء أهل البيت والأقارب والجيران، وامتلأ المنزل ناسا، وبقينا كذلك إلى الصباح، والناس بين ذاهب وآيب. ثم رأيت والدتى فى حيرة فيما تصنعه لى من الإكرام، وتريد عمل وليمة وهى فارغة اليد، ورأيتها تبكى ففهمت حقيقة الحال، فناولتها عشرة بنتوات(1) كانت بجيبى، ففرحت وأولمت(2)، فأقمت عندهم يومين، ثم استأذنتهم ووعدتهم بالعود. ورجعت إلى دمياط، وأوردت نتيجة الاستكشاف على رئيس الرجال، فوقعت عنده موقع الاستحسان وأثنى على، وأخبرنى أنه حصل على أمر من عباس باشا بإلحاقى بمعية جاليس بك فقبلت يده وشكرت له. ولما رجعنا إلى المحروسة استأذنته وسافرت إلى إسكندرية بعيالى وأخ وأخت لى صغيرين كنت أربيهما، فلما وصلت هناك تركتهم فى المركب، وذهبت إلى جاليس بك، فوجدت عنده سليمان باشا الفرنسي قد سبقنى وكذا غيره من الأمراء والضباط، فجلست بعد أداء الواجب، وبينما فنجان القهوة بيدى إذا بمكتوب وارد بالإشارة من المرحوم عباس باشا بطلبى حالا فى الوابور(3) المتهيىء للقيام، فاغتم لذلك جاليس بك، وداخلنى ما لا مزيد عليه من الخوف لما كنت أعلم عما كان يقع لمن يلوذ بالعائلة الخديوية من الإيذاء، وكان لى اجتماعات بالخديوى إسماعيل وغيره منهم، فهون على سليمان باشا الفرنسي، وقال: لعله يريد أن يجعلك معلماً لإبنه لأنه تكلم فى ذلك مراراً فلا تخف، فقلت: إن أهلى فى المركب وكيف أصنع بهم؟ فقال: أنا أنوب عنك فيهم وأرسلهم وراءك

(1) البنتو يساوى ٧٧ قرشاً تقريباً.
(2) أعدت وليمة. (3) القطار.

إلى مصر فخل عنك هذا الأمر وامض بسلامة الله . فمن غير أن أرى عيالى ولا أن يعلموا بى سافرت فى الوابور وأنا بين راغب وراهب . ولما مثلت بين يدى المرحوم عباس باشا أنا وحماد بك وعلى باشا ابراهيم ، قال لى : أنت على أفندى مبارك ؟ قلت : نعم ، فقال : « إن أحمد باشا (يعنى أخا الخديوى السابق) قد أثنى عليك، فقد جعلتكم فى معيتى ، وقد أمرت بامتحان مهندسى الأرياف ومعلمى المدارس لأن الكثير منهم ليسوا على شىء ، وجعلتكم من أرباب الامتحان » ، وشرط علينا أن لا نتكلم إلا بالصدق ولو على أنفسنا ، وإذا عثر على أن أحداً منا كذب فى شىء فجزاؤه سلب نعمته وإلباسه لبس الفلاحين وسلكه فى سلكهم ، ثم حلفنا على ذلك واحداً واحداً خلفنا ، وحينئذ أنعم علينا برتبة الصاغقول أغاسى(١) ، وأعطانا نيشانات الرتبة ؛ وهى عبارة عن نصف هلال من الفضة ونجمة من الذهب فيها ثلاثة أحجار من الماس ، وخرجنا فرحين ، واشتغلنا بما نيط بنا على الوجه الأتم ، وسافرنا معه إلى الجهات القبلية ، وصار امتحان المهندسين وتعويض(٢) كثير بآخرين من أرباب المعارف الذين تربوا فى المهندسخانة .

وفى هذه السفرة أحيل علينا الكشف على شلال أسوان لبيان الطريق الأوفق لسير المراكب ، فاكتشفنا ذلك ، وقدمنا به جريدة ورسماً ، فأتى على الغرض المطلوب . ومذ كنا بأسيوط أمرنا بالذهاب إلى منفلوط لبيان ما يلزم عمله فى تحويل البحر عنها ، فتوجهنا مع الكاشف(٣) جمال الدين كبير هذه المدينة ، وقررنا ما يلزم إجراؤه لمنع هذا الداء العضال ، فأجرى وحصلت نتيجته .

---

(١) رتبة : أى رئيس الجناح الأيمن ، انظر : الرتب والألقاب ، أحمد تيمور ، ص ٥٨ .
(٢) استبدال وتغيير .
(٣) إحدى الوظائف القيادية فى المدن .

ثم لما عدنا إلى المحروسة صدر الأمر بتوجهنا إلى القناطر الخيرية لمشورة مع موجيل بك باشمهندسها فيما يلزم عمله لتسهيل سير المراكب بها ومنع العطب عنها ، فإن الخطر كان متتابعاً فيها لشدة التيار هناك لأن القناطر كانت قد قاربت التمام ، ولم يبق إلا فتحات الوسط ، فكان كثير من المراكب يتعطل إن لم يعطب ، وكان موجيل بك قد أبدى رأياً بعمل ترع تمر فيها المراكب ، وقدمه للمرحوم عباس باشا فلم يوافقه عليه لما فى ذلك من كثرة المصرف ، وهذا هو السبب فى تعييننا ، فبالتداول اتفقنا على استعمال وابورات تسحب المراكب بالأرغاطات(*) ، وعرض ذلك عليه فأعجبه ، وأجرى به العمل وأبطل التصميم الأول ، وكان كثيراً مايحيل علينا أشغالا ترد من الدواوين مما يتعلق بالهندسة فنقوم بها .

وفى أواخر سنة ٦٦(١) كان قد عرض عليه من طرف لامبير بك ترتيب للمدارس الملكية ، والرصدخانة ، يبلغ منصرفه(٢) نحو عشرين ألف كيس(٣) ، فاستعظمه وأحال علينا النظر فيه بشرط أن لا نفشيه ، فتداولنا ذلك بيننا أياماً ، ولم تتفق آراؤنا. فخفت فوات الوقت قبل تمام العمل . فشرعت وحدى فى عمله من غير انتظار لرأى أحد . فعملت لجميع المدارس ترتيباً بلغ منصرفه ألف كيس(٤) ، وجعلت أساس ذلك احتياجات القطر لا غير ، وأن جميع المدارس الملكية تكون فى محل واحد تحت إدارة ناظر واحـــد ، وأسقطت(٥) الرصدخانة بالمرة من الترتيب لعدم وجود من يقوم بها حق القيام إذ ذاك من أبناء الوطن مع احتياجها إلى كثرة المصرف(٦) ، وأبديت فى الترتيب أنه يلزم توجيه

(*) لم نعثر على معناها ويبدو أنها حبال غليظة تسحب بها المراكب.

(١) سنة ١٨٤٩ م .
(٢) ميزانية ما سوف ينصرف .
(٣) الكيس ٥٠٠ قرش .
(٤) ٥ آلاف جنيه .
(٥) ألغيت .
(٦) المصاريف .

جماعة إلى بلاد الإفرنج ليتعلموا فنون الرصدخانة ، وبعد قدومهم تفتح إدارتها ، وعينت لذلك محمود باشا الفلكي(١) ، وكان إذ ذاك برتبة صاغقول أغاسي(٢) وإسماعيل باشا الفلكي(٣) ، وحسين بك إبراهيم وكان من التلامذة الذين تمموا دروسهم ، ثم قرأت ذلك الترتيب على رفيق ، فلم يوافقاني عليه ، فقلت هو عندنا محفوظ. فإن لم نعمل غيره نقدمه ليتنع عنا اللوم ، وقد كان ذلك عين الصواب . لأنه بعد قليل طلب منا تقديم الترتيب ، ولم نكن عملنا غير هذا فقدمناه ، فاستغربه المرحوم عباس باشا وعجب مما فيه من الأصول المخترعة مع قلة مصرفها ، وقال : من عمل هذا ؟ فقلت : أنا عملته . ووجد آراء صاحبيّ مختلفة ومخالفة لذلك ، فأحال النظر فيه على مجلس ينعقد من جميع رؤساء الدواوين مع حضوري وحضور لاميبر بك ، فانعقد المجلس ثمانية أيام وبعد المناقشة الطويلة استقر رأي الجميع على هـــذا ، وصدرت خلاصة باستحسانه واستحقاقي رتبة أمير الاي(٤) . فطلبني المرحوم عباس باشا ، وسألني عما أراه من نجاح هذا الترتيب وعدمه لدى العمل به . فقلت : « هذا رأيي ، فإن أحسن مديره إدارته وأجراه على فهم منه وبصيرة نجح ، وإلا فلا ، فإن الساعة المضبوطه الدقيقة الصنعة يفسدها من لا يحسن إدارتها من جاهل أو مفرط

---

(١) مهندس رياضي من علماء مصر ، ولد سنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٥ م) وتوفى ١٣٠٢ هـ (١٨٨٥) .

(٢) أي رئيس الجناح الأيمن انظر : الرتب والألقاب ، أحمد تيمور ص ٥٨

(٣) من علماء مصر الرياضيين ، نبغ في الفلك . ولد سنه ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م) توفى ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م) .

(٤) مركّب من أمير ، وآلاي بمعنى الفيلق فيقال فيه : أمير فيلق انظر : الرتب والألقاب ص ٥٩ .

وتدوم على حالها إذا كانت بيد من يحسن إدارتها » . فعجب من جراءتى واستحسن جوابى ، وقال : فهل تضمن ذلك ؟ فقلت : و كيف وقد ضمنه الجميع بالقرار الذى عملوه ! . فأحال علىّ نظارتها وأعطانى الرتبة والنيشان وجعل على باشا إبراهيم معلم نجله إلهامى باشا ، وحماد بك ناظر قلم هندسة برتبة بيكباشى(١) فأجريت إدارة المدارس المهندسخانة وما يلحق بها ، وأحال علىّ تعيين معلمى المفروزة(٢) وترتيب دروسها واختيار ما يلزم لها من الكتب ، فأجريت ذلك ، وكان لى عنده منزلة .

وفى مدة نظارتى كنت أباشر تأليف كتب المدارس بنفسى مع بعض المعلمين ، وجعلت بها مطبعة حروف ، ومطبعة حجر طبع فيها للمدارس الحربية والآلايات(٣) الجهادية نحو ستين ألف نسخة من كتب متنوعة ، غير ما طبع فى كل فن بمطبعة الحجر للمهندسخانة وملحقاتها من الكتب ذات الأطالس والرسومات وغيرها مما لم يسبق له طبع . واستعملت فى رسم أشكالها وأطالسها التلامذة لا غير . وقد حصل منها الفوائد الجمة العمومية ، وكل ذلك كان لا يشغلنى عن التفاتى للتلامذة فى مأكلهم ومشربهم وملبسهم وتعليمهم وغير ذلك ، وكنت أباشر ذلك بنفسى حتى أعلم التلميذ كيف يلبس وكيف يقرأ وكيف يكتب ، وألاحظ المعلم كيف يلقى الدرس وكيف يؤدب التلامذة ، ولا يمضى يوم إلا وأدخل عند كل فرقة وأتفقد أحوالها مع التشديد على الضباط والخدمة حتى الفراشين فى القيام بما عليهم كما ينبغى ، فاندفع بذلك عن التلامذة مضار عمومية ومفاسد كثيرة ، ولم

---

(١) مركّب من بيك بمعنى ألف ، وباش بمعنى رأس ، وهو رئيس ألف أى أورطة من الجند . انظر : الرتب والألقاب ص ٥٨ .

(٢) أى التى تقوم بأعمال الفرز ، وأفرز الشىء عن غيره أى عزله ونحاه .

(٣) جمع آلاى بمعنى الفيلق (ج) فيالق .

أكتف بذلك ، بل جعلت على نفسى دروساً كنت ألقيها على التلامذة كالطبيعة والعمارة . وألفت فى العمارة كتاباً بقى متبعاً فى التعليم بالمدارس وإن لم يطبع .

وبحمد الله نجح مسعانا ونجب كثير من التلامذة وقاموا بمصالح كثيرة ، وحصل بهم النفع العظيم ، وترقى جمع منهم إلى الرتب العالية ، وشاع الثناء عليهم فى المعارف والآداب ، وشهدت لهم بالفضل أعمالهم المهمة التى أجروها . ولكثير منهم معرفة باللغة الفرنسية بحيث يجيد التكلم بها كمن تعلموا فى أوربا ، وخرج منهم معلمون متقنون فيها وفى غيرها .

وكان أمر المدارس كل حين لا يزداد إلا صلاحاً ، ولا التلامذة إلا نجاحا . ولا المعلمون إلا اجتهاداً . وكانت الامتحانات السنوية تشهد بمزيد الاعتناء وحسن الأسلوب ونجاح الطريقة المتبعة ، وكان ما يصل للتلامذة ومعلميهم من المكافآت والثناء والتشويق والترغيب ، داعياً حاثاً لهم على زيادة الجد والاجتهاد . وجرت بين المعلمين المودة والألفة ، وتربت الأطفال على الأخوة ، وغرس فيهم حب التقدم وشرف النفس والعفة ، حتى وصلت النظارة للاكتفاء فى تأديب من فرط منهم أمر بالنصيحة واللوم ، وانقطع الشتم والسفه(١)، وكاد يمتنع الضرب والسجن ، وبالجملة فكانت أغراضى فيهم أبوية ، أنظر للجميع من معلم ومتعلم نظر الأب لأولاده . وإلى الآن أعتقد أن ذلك واجب على كل راع فى رعيته حتى يحصل الغرض من التربية .

وقد تحقق لى نتيجة ما صرفته من الهمة فى تربيتهم والشفقة عليهم ، فإنه لما تولى المرحوم سعيد(٢) باشا ولاية مصر ، ورمى عنده المدارس

---

(١) رداءة الخلق .

(٢) ولد سنة ١٢٣٨ هـ = ١٨٢٢م توفى سنة ١٢٨٠ هـ = ١٨٦٣م .

بعض المفسدين بلسان الحسد والفتنة ، ووصفوها بما ليس له نصيب من الصحة ، واختلقوا لها معايب لم تكن فيها :

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسـداً وبغضا إنه لدميم

حتى أوجب ذلك انفصالى عنها ، وتعينت للسفر مع العساكر لمحاربة المسكوب(١) مع الدولة العلية . وذلك فى سنة سبعين ومائتين وألف(٢) خرج جميع التلامذة كبيرهم وصغيرهم من المدرسة قهراً عن ضباطهم ، ووقفوا بساحل البحر أمام السفينة التى نزلت فيها للسفر إلى الإسكندرية ، وجعلوا يبكون وينتحبون انتحاب الولد على والده حتى بكت عينى لبكائهم ولكن انشرح صدرى لمشاهدة ثمرات غرسى وآثار تربيتى، فحمدت الله .

ثم سافرت بمعية(٣) أحمد باشا المناكلى، فأقمت فى هذه السفرة قريباً من سنتين ونصف ، وقد لطف الله بى وأحسن إلىّ ورد كيد الحاسدين فى نحورهم . فإنى وإن قاسيت فيها مشاق الأسفار وما يلحق المجاهدين من الرجف(٤) والاضطرابات والحرمان من المألوفات ، لكن رأيت بلاداً وعوائد كنت أجهلها ، وعرفت أناساً كنت لا أعرفهم ، واكتسبت فيها معرفة اللغة التركية . فإنى أقمت أربعة أشهر بالقسطنطينية اشتغلت فيها بتعلم تلك اللغة .

كما أنى أقمت عشرة شهور فى بلاد القريم(٥) كان يحال علىّ فيها أمر

---

(١) يقصد روسيا القيصرية نسبةً إلى موسكو العاصمة .

(٢) أى السنة التى تبدأ فى أكتوبر ١٨٥٣م وتنتهى فى ٢٣ سبتمبر ١٨٥٤م .

(٣) يقصد برفقته وحاشيته .

(٤) اضطراب بشدة من فرط الخوف .

(٥) يقصد القرم . وقد بدأت حرب القرم فى ٢ يوليو ١٨٥٣م ٢٥ رمضان ١٢٦٩هـ . وانتهت فى ٣٠ مارس ١٨٥٦م ٢٣ رجب ١٢٧٢هـ .

المحاورة بين المسكوب والدولة العثمانية بأمر مجلس العسكرية ، وأقمت ثمانية شهور فى بلاد الأناطول(١) أغلبها فى مدينة كموشخانه أى (بيت الفضة) لوجود معدن الفضة هناك ؛ وهى مدينة عامرة على رأس جبل ، وكان منوطاً بى وأنا بها تسهيل سوق العساكر من مدينة ترابزان الواقعة على البحر الأسود إلى مدينة أرضروم ، وكان ذلك فى وقت الشتاء وشدة البرد والثلج الكثير هناك مع صعوبة ما فيها من العقبات ما بين جبال شاهقة وأودية منخفضة ، فقاسيت من ذلك شدائد مهمة وأهوالا مدلهمة(٢) ، وكنت أباشر كل فرقة فى سلوكها بنفسى لا يصحبنى غير خادمى ، وجمعت المصابين بالبرد وجعلت لهم مستشفى بمدينة (كموشخانه) ، وهيأت مفروشاتها ولوازمها بعضها بالشراء والبعض من طرف أهالى المدينة . ولاشتغال الأطباء بالآلايات استعملت فى مباشرة المرضى رجلا مكياً له إلمام بالحكمة ، وسلكنا فى المعالجة عادات أهل تلك الجهة ، فأثمر ذلك ثمرة عظيمة ؛ حتى إذا تهيأنا للسفر شهد لى بحسن المسعى أعيان المدينة وأكابرها من القاضى والعلماء والأمراء ، وكتبوا بذلك مضبطة(٣) وضعوا فيها شهاداتهم ، وهى عندى إلى الآن وعليها أيضاً ختم خالد باشا مأمور سوق العساكر العثمانية إلى غير ذلك من فوائد الأسفار على ما بها من الأصار(٤) . وكنت وأنا فى المدارس قد لحقنى الدين بسبب ما احتجت إليه فى تنظيم بيتى على حسب ما تقتضيه وظيفتى ، وكذا ما أنفقته على ثلاثمائة فدان أبعادية(٥) أحسن إلىّ بها المرحوم عباس باشا بلا واسطة ، فلما سافرت

---

(١) يقصد الأناضول . (٢) الشديدة على النفس من كثرتها .
(٣) سجل تدون به الأمور مفصلة .
(٤) بمعنى المتاعب ، من تصور الرجل أى سقط أو مال للسقوط .
(٥) أى أرض بعيدة عن العمران غير مستصلحة .

تركت وظيفتى (ماهيتى) للدَّين ، فوفته ، واقتصرت على ما كان يصرف لى من التعيين ، وقد كفانى وقام بجميع لوازمى وزاد منه ثلاثمائة جنيه حضرت بها إلى مصر ، وأيضاً فإن رفقتى الذين نشأت معهم كحماد بك وعلى باشا إبراهيم كانوا قد رفضوا(١) من الخدمة فى مدة سفرى ، فلو بقيت للحقت بهم .

ومما اتفق لى أنى تزوجت قبل سفرى هذا بعد موت زوجتى الأولى بقريبة أحمد باشا طوبسقال ، وكانت ذات مال وعقار ، وكانت يتيمة غِرَّة(٢) بمنزلة الطفل الصغير لاتحسن التصرف ولا تميز الدرهم من الدينار مع كثرة إيرادها وتعدد أملاكها ، وكان جميع أمرها بيد غيرها . والسبب فى ذلك أن أمها كانت تزوجت برجل يعرف براغب أفندى، فماتت عنده الأم وبقيت البنت عنده يتيمة صغيرة ، فتزوج بامرأة أخرى ، فكانت زوجته الجديدة قيمة(٣) هذه اليتيمة والقائمة بأمرها والكافلة لها مع راغب أفندى ، فاتخذتها البنت كأمها . وكانت المرأة لا تطلعها على شىء ولا تمكنها من شىء ، فلا تفعل ولا تقول إلا ما تريد منها هذه المرأة ، فلما دخلتُ بها خافت المرأة ومن معها أن أطمع فى أموال هذه اليتيمة أو أعرفها بحقوقها فتطالب بها وتنزعها من أيديهم، فأساءوا عشرتى وبالغوا فى إساءتى إلى حالة لا تحتمل ، ، وغاية لاتتصور ، حتى مللت ومات بعد أشهر قليلة إلى العزلة عنهم بزوجتى ، فازداد بالمرأة الخوف من انتزاع ما استحوذت عليه من مال هذه اليتيمة ، فتوسلت بحابى افندى الكاشفى إلى والدة المرحوم عباس باشا ، فرمى(٤) فى عند حسن باشا المناسترلى

---

(١) فُصلوا .

(٢) بكسر الغين أى لاخبرة لها تنخدع إذا خدعت .

(٣) متولية شئونها . (٤) اتهمنى .

وأغرى(١) بى أغوات السراى حتى داخلنى الخوف واشتد بى الكرب، واتسعت القضية ودخلت المرأة المذكورة إلى سراى الوالدة المشار إليها بعرضحال(٢) زورته عن لسان زوجتى بالشكاية منى كذباً ، فلما وقفت المشار إليها على الحقيقة صدر أمرها بإعطائى زوجتى .

فعند ذلك استطلعت(٣) الكافلة المذكورة بمعونة جلبى افندى وأعوانه وثيقة جردوا فيها اليتيمة عن جميع أملاكها ، وأشهدوا عليها بدين جسيم لكافلها ، ووضعوا عليها شهادة جماعة من الترك بخط الدرى كاتب المحكمة الكبرى ، وأنا لا أعلم بشىء من ذلك ، ثم أخرجوها لى مجردة ما عليها إلا ثيابها مع أثاث قليل ، فأقمنا أياماً فى راحة ، وكانوا قد دسوا(٤) لها من قبل أنى أغدر بها وأقتلها ، استعانة بذلك على تجريدها من أملاكها بإيهامها أن هذا أمر ظاهرى أرادوا به حفظ أموالها وأملاكها من تسلطى عليها وانتزاعى لها ، فيبقى ذلك عندهم حتى تريده فيكون لها متى شاءت حين تأمن غائلتى(٥) . فلما ذهب خوفها وأمن روعها ولم تجد منى تطلعاً لشىء من ذلك ولا أثراً مما خوفوها به ، أخبرتنى بالحجة(٦) التى جردوها بها ، وأنها تركت حليها هناك ، وطلبت منى الإذن فى التوجه إليهم لتأتى به إذ لم تجد شيئاً مما كانت تخافه ، فقلت لها : إن ذلك لا يجدى وهذه حيلة تمت عليك . فلم تسمع . وذهبت ورجعت خالية اليدين باكية العينين حزينة آسفة على ما تم عليها من الحيلة ، فحملتنى الرأفة على أن أسعى لها فى استخلاص حقها ، فقدمت فى ذلك عرضحال بصورة الواقعة للمرحوم

---

(١) سلط وألقى العداوة .
(٢) هى عرض حال أى طلب يكتب لشكاية .
(٣) استخرجت . (٤) أعملوا المكر والعداوة .
(٥) شرّى . (٦) صك البيع الذى يكتب للشارى .

عباس باشا ، واتسعت القضية ، ونظرت فى الدواوين والمجالس ، ودخل فيها القاضى والمفتى. ولما حصحص (١) الحق دخل فيها جلبى افندى بالوسائط حتى خوفنى الكتخدا(٢) بالنفى إلى السودان إن لم أكف عن هذه القضية. وبعد طول النزاع تممتها بالصلح ، فرجع لها العقارات والأوقاف ، وضاع عليها المال ، وبطل عنها الدّين . ولم أصل إلى هذه الغاية إلا بعد أن قاسيت فى ذلك من الشدائد والأهوال وعجائب الأحوال ما لو وصفته لطال الشرح واتسع المجال .

وقد بنيت بيتها من مالى ، وصرفت عليه نحو ستمائة كيس ، وكان موقوفاً(*) عليها ، فأرادت إشراكى فيه معها فى نظير ما صرفته ، وكان ذلك لها بمقتضى شرط الواقف(*)، فقبلت ، ودخلتُ معها فى الوقفية(*) وكتبت الوثيقة بمحضر من العلماء والأمراء والأعيان . فلما كنت فى الأستانة دخلت عليها كافلتها المقدم ذكرها ، وقالت لها : إن الرمل(٣) أخبر بأن زوجك يموت فى سفره ، وصدق على ذلك جماعة من حواشيها وحسّنوا لها إبطال الحجة المتضمنة حصتى فى وقفية البيت، ثم لاذوا بجماعة

---

(١) أى وضح الحق، إشارة إلى قوله تعالى : « قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق » سورة يوسف الآية ٥١ .

(٢) نائب أو وكيل .

(*) الوقف: حبس مال أو ما يغله من ريعه فى سبيل الله أو على شخص أو أشخاص . ويسمى صاحب المال الأصلى واقفاً ، والمنتفع موقوفاً عليه . ويسجل هذا الوقف فى وثيقة تسمى وقفية . وللواقف أن يشترط شروطاً فيها .

(٣) أى البحث عن المجهولات بخطوط تخط على الرمل وهو من الخرافات

من أصحابنا الذين لنا عليهم المعروف ليشهدوا لهم بأن الحجة مزورة ، وأن التى نطقت يوم كتب الحجة إنما هى أختى تمثلت بها(١)، فظنوها إياها ، وحملوها على أن كتبت فىّ عرضاً(٢) يتضمن أنى أخذت أموالها ومتاعها، ثم أرسلوه إلى ابن عمها فى الأستانة ، وكنت معه فى محل واحد ، فأرانيه ، فقرأته ، وأخذت نسخته وسلمته إليه ، وقلت : «لا ثمرة الآن فى المنازعة هنا فاحفظه عندك حتى نعود إلى مصر ، وهناك تظهر الحقيقة ، فإن مت قبل ذلك فلها جميع ما يورث عنى» .

فلما رجعنا إلى مصر عقدنا لذلك مجلساً حضره كاتب المحكمة والشهود وجمع من أعيان العلماء ، وجرى الحساب ، وهى حاضرة فى المجلس ، فثبت لى عليها مائة وخمسة وعشرون ألف قرش عملة ديوانية ، غير ستمائة الكيس التى صرفتها فى عمارة البيت ، فبعد ثبوت حقى وظهوره تنازلت فى المجلس عن جميع ذلك ، ولم آخذ إلا وثيقة من أهل هذا المجلس بجميع ما حصل، وإثبات تنازلى بعد الثبوت ، ثم بعد أيام قلائل تركتها وخرجت من البيت ولم آخذ منه شيئاً ، حتى تركت جواريّ اللاتى كن فى ملكى ، وطهرت نفسى مما نسبه إلىّ أهل البهتان ، وأرحت نفسى من تلك الوساوس والهواجس .

ثم بعد عودنا من هذا السفر الطويل خُلى سبيل العساكر ولحقوا ببلادهم ، ورفض(٣) كثير من الضباط ، فكنت ممن رفض ، وسكنت فى بيت صغير بالأجرة مع أخ لى كنت تركته فى المدرسة عند الشقر مع ابن أخ آخر ليتربيا فيها ، فطردا منها بعد سفرى ، ولم يعطف عليهما أحد ممن كنت أساعدهم فى مدة نظارتى ، ولم يشفق عليهما إلا سليمان باشا الفرنسى(٤)

(١) زعمت أنها زوجتى . (٢) شكوى . (٣) فصل .

(٤) كان من جند نابليون بونابرت ، واسمه مسيو سيف ، وهو من مواليد فرنسا عام ١٧٨٨ م وتوفى سنة ١٨٦٠ م .

فإنه أدخلهما فى مكتب كان أنشأه بمصر العتيقة على نفقته ، وشملهما برأفته ، ثم غرق ابن أخى فى البحر ، وبقى أخى إلى أن جئت فالتحق بى . فكانت حالتى بعد سبع سنين مضت من عودى من بلاد أوروبا كحالتى عند عودى منها ، وذهب ما رأيته من الأموال والمناصب وجميع ما كسبت يداى ، ولم يبق بالخاطر غير مافعل الناس معى من خير وشر، وما أكسبنى الزمان من صدماته وغرائب تقلباته ، حتى حلا لى التخلى عن الحكومة وخدمتها ، وغضضت طرفى عن التطلع للمناصب وعزمت على الرجوع إلى بلدى والإقامة بالريف والاشتغال بالزرع والتعيش من جانبه ، وترك الاشتغال بالقيل والقال، وقلت : عوضنا الله خيراً فى نتائج الفكر وثمرات المعارف ، ولنفرض أنّا ما فارقنا البلد ولا خرجنا منها .

وبينما أنا أتجهز للسفر إلى البلد على هذه النية ، صدر أمر بأن جميع الضباط المرفوضين يحضرون بالقلعة للفرز ، فحضرنا . وكان المنوط بالفرز أدهم باشا وإسماعيل باشا الفريق وجملة من الأمراء ، فكان أهم مايعتنون به معرفة عمر الإنسان ، وكانوا يعرفون السن بالنظر إلى السن ، فهالنى هذا الأمر وثقل علىّ ، ووددت أن لا أكون طلبت ، فلما وصلنى الفرز عافانى من ذلك أدهم باشا لسابق معرفته بى، وكتبت فى المختارين للخدمة ، فتعطلت عن السفر .

وبعد قليل تعينت معاوناً بديوان الجهادية ، وأحيل علىّ النظر فى القضايا المتأخرة المتعلقة بالورش والجبخانات(١) وغيرها من ملحقات الجهادية ، وألحقوا بى كاتباً، فاشتغلت بها زمناً وأتممنا جملة منها .

وفى ذات يوم كان إسماعيل باشا الفريق ناظر الديوان إذ ذاك مشتغلا برسم بعض المناورات العسكرية ، فلم يحسن ذلك، وتحير فى إتمامها ، فدعانى

---

(١) مخازن مواد الحرب من بارود وقنابل .

فرسمتها فى عدة أفرخ من الورق على الوجه اللائق ، فوقع عنده ذلك موقعاً حسناً ، وأثنى علىّ ووعدنى بذكرى بخير عند المرحوم سعيد باشا ، وطلب منى وضع إسمى على الرسم ، فقلت : عافنى من ذلك ، ولا تذكرنى عنده ، فأرانى أن فى ذلك فوائد جمة وأنه عين الصواب .

ثم لما عرض الرسم عليه وتكلم معه بما تكلم ، أمر بإبطال التحقيق وحفظ القضايا بالدفترخانة وإلحاقى بمستودعى الداخلية . فبقيت كذلك زمناً قليلا ، وكان يحال علىّ بعض القضايا .

ثم دعيت إلى وكالة مجلس التجار ، فأقمت فيه شهرين ، وكان سلفى فيه رجلا من الأرمن له سند قوى سهل له به الوصول إلى المرحوم سعيد باشا ، فرمى فىّ بما رمى . فرفعت من هذه الوظيفة ، وتأسف لرفعى التجار البلديون لما رأوه من البت فى القضايا على وجه الحق ، فأقمت فى بيتى نحو ثلاثة أشهر ، ثم تعينت مفتش هندسة نصف الوجه القبلى ، فأقمت فيه نحو شهرين ، ثم خلفنى فى ذلك على باشا إبراهيم ، ثم دعانى المرحوم سعيد باشا لعمل رسم لاستحكامات(١) أبى حماد ، ودعا على باشا إبراهيم للكشف على الجانب الغربى من النيل إلى أسوان ، فاشتغلنا بذلك مدة بلا مرتب ، ولما تمت الرسم ذهبت إليه لعرض الرسم عليه وكان فى طرا(٢) فلم أتمكن من ذلك ، وصرت أتردد على طرا أياماً لهذا القصد ، فلم يتيسر ، ثم قام إلى قصر النيل ، فترددت على ذلك الموضع أيضا ، فلم يتم المقصود ، ثم قام إلى الإسكندرية فتحيرت فى أمرى إذ كان لا يثبت فى مكان ، ولم يتيسر لى عرض نتيجة المأمورية عليه ، فالتزمت الإقامة بمصر حتى أتمكن من لقائه ، وطالت المدة ، وفرغ المصروف ، ثم قدم إلى مصر فذهبت إليه ،

---

(١) تحصينات . (٢) يقصد طره ، وهى ضاحية من ضواحى القاهرة على الشاطىء الشرقى للنيل .

فلم أتمكن من الدخول إليه ، فقال لى مأمور التشريفات : كن معنا على الدوام لعلك تجد فرصة فى وقت من الأوقات تتمكن بها . وحضر على باشا إبراهيم أيضاً فاصطحبنا ، ولازمنا معيته فى السفر ثلاثة أشهر بلا وظيفة (مرتب) ، ولا شغل ، مع كثرة التنقلات من بلد إلى بلد ، ومن موضع إلى آخر .

ثم لما كان ذات يوم فى الجيزة وقع نظره على ؛ فنادانى وكلمنى وسألنى عما صنعت فى الرسم ، فقدمته له ، فنظر فيه قليلا ثم قال : أبقه حتى تجد وقتاً لإمعان النظر فيه . ثم لم يلتفت إليه بعد ذلك ، ولكن ربطت(١) لى وظيفة .

وبقيتُ فى معيته(٢) زمناً بلا شغل إلى أن كنا مرة بمريوط وكان معنا المرحوم أدهم باشا ، فأخبرنى أنه صدر له الأمر بتعيين معلمين لتعليم الضباط وصف الضباط القراءة والكتابة والحساب ، وسألنى عمن يليق للقيام بهذا الأمر ، فعرضت نفسى لذلك ، فظن أنى أهزل لاعتقاده ترفعى عن هذه الخدمة ، وقال: أترضى أن تكون معلماً لهؤلاء ؟ ! فقلت : كيف لا أرغب انتهاز فرصة تعليم أبناء الوطن وبث فوائد العلوم ، فقد كنا مبتدئين نتعلم الهجاء ، ثم وصلنا إلى ما وصلنا إليه ! .

فلما عرض ذلك على المرحوم أحال على تعليمهم ، فأصحبت معى اثنين من الأفندية ، ورتبت مواد التعليم والطريقة التى يلزم اتباعها ، وشرعنا فى التعليم ، فكنت أكتب لهم حروف الهجاء بيدى ، ولعدم الثبات فى مكان واحد كنت أذهب إليهم فى خيامهم ، وتارة يكون التعليم بتخطيط الحروف على الأرض ، وتارة بالفحم على بلاط المحلات ، حتى صار لبعضهم إلمام(٣) بالخط ، وعرفوا قواعد الحساب الأساسية ، فجعلت

---

(١) فرض له مرتباً بلا عمل يذكر . (٢) حاشيته . (٣) معرفة .

نجباءهم(١) عرفاء(٢) استعنت بهم على تعليم الآخرين ، فازداد التعليم واتسعت دائرته ، واستعملت لهم ، فى تعليم مهمات القواعد الهندسية اللازمة للعساكر ، الحبل والعصا لاغير . فكنت إذا أردت توقيفهم على عملية كتقدير الأبعاد وتعيين النقط واستقامة الحذاء(٣) ، أجرى ذلك لهم عملا على الأرض ، وأبين لهم فوائده وثمراته النظرية ، فكان يثبت فى أذهانهم حتى أن بعضهم كان يجريه أمامى فى الحال بلا صعوبة ، ووضعت فى ذلك كتاباً مختصراً جمعت فيه اللازم من الحساب والهندسة وطرق الاستكشافات العسكرية ، وسميته (تقريب الهندسة) ، وطبع على مطبعة الحجر ، فانتفع به كثير من الناس خصوصاً فى الآلايات ، وتكرر طبعه . وكنت جمعت أيضاً جزءاً فيما يلزم معرفته للضباط من فن الاستحكامات ، وسوق الجيوش وترتيبها ، وكيفية المحاربات ونحو ذلك ، لكنه لم يتم ولم يطبع ، وقد ضاع منى .

وكنت فى أوقات الفراغ أشغل الزمن بالمطالعة ، وأكتب تعليقات أستحسنها فى ورقات جمعتها بعد ذلك ، فصارت كتاباً مفيداً فى فنون شتى ، مما يحتاج إليه المهندسون ، وبقى عندى إلى أن اطلع عليه بعض معلمى الرياضة فى المدارس الملكية وغيرهم أيام نظارتى عليها فى مدة الحكومة الخديوية الإسماعيلية ، فرغبوا فى طبعه فطبع بمطبعة المدارس وسمى (تذكرة المهندسين)(٤) ، وكان المباشر لمقابلته وطبعه أولا السيد أحمد أفندى خليل ناظر مدرسة المحاسبة يومئذ ، وبعده : على أفندى الدرندلى أحد أساتذة المهندسخانة ، إلى أن تم طبعه ، وهكذا كانت جميع أوقاتى

---

(١) جمع نجيب : من حمد فى فعله أو قوله .

(٢) بضم العين جمع عريف ، أى أنهم انضموا إلى فريق المدرسين .

(٣) الموازاة والتقابل .

(٤) طبع سنة ١٢٩٠هـ (١٨٧٣م) .

مشغولة بأمثال ذلك ، وببعض مأموريات كانت تحال على .

ثم لما رام(١) المرحوم سعيد باشا التوجه إلى بلاد أوروبا أمر برفض غالب من كان فى معيته ، فكنت فى جملة المرفوضين . وكنت قبل رفضى تزوجت واشتريت بيتاً بدرب الجماميز(٢) ، وشرعت فى بنائه وتعميره ، فكثر علىّ المصرف(٣) ، ولحقنى الدين حتى ضاق ذرعى(٤) . وكان يومئذ قد صدر الأمر ببيع بعض أشياء من تعلقات الحكومة زائدة عن الحاجة من عقارات وغيره ، وكان المأمور بذلك المرحوم إسماعيل باشا الفريق ، وكان لى من المحبين ، وكنت جاره فى السكنى ، فاستصحبنى معه إلى بولاق وغيرها من محلات البيع ، فلما حضرت المزادات رأيت الأشياء تباع بأبخس الأثمان ، ورأيت ما كان لمدرسة المهندسخانة من اللوازم والأشياء الثمينة العظيمة ، وفى جملتها الكتب التى كنت طبعتها وغيرها تباع بتراب الفلوس ، وكذا أشياء كثيرة من نحو آلات الحديد والنحاس والرصاص والعقارات والفضيات والمراية والساعات والمفروشات وغير ذلك . وليتها كانت تباع بالنقد الحال بل كانت الأثمان تؤجل بالآجال البعيدة ، وبعضها بأوراق المرتبات ، ونحو ذلك من أنواع التسهيل على المشترى ، فكان التجار يربحون فيها أرباحاً جمة ، فلبطالتى(٥) واستدانتى وكثرة مصرفى مالت نفسى للشراء من هذه الأشياء والدخول فى التجارة ، ففعلت ، وعاملت التجار وعرفتهم وعرفونى وكثر منى الشراء والبيع ، فربحت واستعنت بذلك على المصروف وأداء بعض الحقوق ، واستمر منى ذلك نحو الشهرين ، فازدادت عندى دواعى

---

(١) رغب . (٢) كان يعرف بشارع بستان وموقعه الحالى بين ميدان أحمد ماهر وميدان السيدة زينب . (٣) المصاريف .

(٤) كناية عن الضيق النفسى وشدة الألم . (٥) كونى بلا عمل .

التجارة ، وصارت هي مطمح(١) نظرى ، وقصرت عليها فكرتى خصوصاً لما تقرر عندى من اضطراب الأحوال ، وتقلبات الأمور التى كادت أن تذهب منى ثمرات المعارف والأسفار ، بحيث كلما تقدمت فى العمر وكثرت العيال كنت أرى التقهقر ونفاد ما استحوزت عليه ، فآثرت حرفة التجارة على حرفتى الأصلية ، وصرفت النظر عن الخدمة الأميرية ، وقام بخاطرى أن أعقد شركة مع بعض المهندسين المتقاعدين مثلى ، على أن نبنى بيوتاً للبيع والتجارة ، ونستعمل فيها أفكار الهندسة ، فلم أر من يوافقنى ، فهممت بالقيام بذلك بنفسى ، وشرعت فى العمل .

وبينما أنا فى حوالك(٢) هذه الأحوال ، أروم التخلص من تلك الأوحال ، إذ طرق المرحوم سعيد باشا طارق المنون(٣) فتوفى فى سنة تسع وسبعين ومائتين وألف(٤) ، وقام بأعباء الحكومة بعده حضرة الخديوى إسماعيل(٥) باشا ، فألحقنى بمعيته زمناً .

ثم عينت لنظارة القناطر الخيرية ، وكانت لذلك العهد لم تقفل عيونها بالأبواب ، مع أن أبواب بحر الغرب كانت مرتبة من زمن المرحوم سعيد باشا ، وصرف عليها مبالغ جسيمة من طرف الحكومة ، وكان المانع من إقفالها ما قرره المهندسون من منع ذلك إلى أن ترمم وتقوى لعدم جزمهم بمتانتها ، مع اضطراب آرائهم ، وكان أكثر النيل يمر من بحر الغرب ، وأخذ فى التحول عن بحر الشرق حتى كان فى زمن الصيف لا يدخل فى الترع الآخذة منه إلا القليل من الماء ، وترتب على ذلك قلة زمام المزروع الصيفى فى الجهات التى تسقى من هذا البحر ، وتعطلت

---

(١) غاية الطلب .
(٢) الشديدة السواد .
(٣) الموت .
(٤) سنة ١٨٦٢ م .
(٥) ولد سنة ١٨٣٠ م وتوفى سنة ١٨٩٥ م .

بسبب ذلك منافع كثيرة ، وكان الخديوى كثيراً ما يتردد إلى القناطر الخيرية ، ويقيم بها فى كل مرة عدة أيام ويعتنى بأمرها ، وفى ذات مرة خاطبنى فى شأنها ، وفيما يلزم إجراؤه لتحويل النيل إلى بحر الشرق الذى عليه أفواه أكثر الترع ، وعليه مدار ثروة أهالى تلك الجهات ، فقلت : إن من ألزم الأمور وأنفعها فى ذلك أن تقفل قناطر بحر الغرب ، إذ بذلك تتراجع المياه إلى بحر الشرق ، وتتكاثر فيه ويتحول إليه بعض بحر النيل ، ولا يترتب على إقفالها كبير ضرر للقناطر ، لأن ارتفاع الماء وراء السد لا يكون كبيراً لانحدار النيل إلى بحر الشرق ، فلا يحصل من ضغطه للقناطر تأثير بيّن ، مع أن المهندسين الذين رأوا منع إغلاقها لم يجزموا بحصول الخلل ، وإنما ذلك على سبيل الظن ، فبإغلاقها تظهر الحقيقة ويزول الشك ، فإذا حصل منه خلل وصار معلوماً ، تتدبر الحكومة فى تداركه ، وإن لم يحصل حصل المقصود من تكاثر المياه فى بحر الشرق الذى عليه مدار الزراعة الصيفية والمنافع العمومية ، ولا يترك نفع محقق لضر متوهم يمكن تداركه ، فاستحسن منى ذلك ورآه صواباً ، ورخص فى إقفالها فصارت تقفل ، وحصل من ذلك ما لا مزيد عليه من المنافع العمومية .

وأما الخلل الذى كان متوقعاً حصوله ، فإنه ظهر فى بعض العيون الغربية القريبة من البر الغربى ، فجعل عليها جسراً من الخشب أحاط بها ، فترتبت حولها جزيرة من الرمل حفظتها ، فلم يكن خللها مانعاً من إقفالها كل سنة .

ثم لما حفر رياح(١) المنوفية أحيل علىّ فى مدة نظارتى عمل قناطره ومبانيه ، فأجريتها على ما هى عليه الآن .

وفى سنة اثنين وثمانين(٢) اختارنى للنيابة عن الحكومة المصرية فى

---

(١) الرياح : فرع من الترعة . (٢) سنة ١٨٦٥ م .

المجلس الذى تشكل لتقدير الأراضى التى هى حق شركة خليج السويس ، على مقتضى القرار المحكوم به من طرف إمبراطور فرنسا . وكان المعين نائباً من طرف الدولة العلية حضرة سرور أفندى ، وكذا كان لكل من الحكومة الفرنسية والشركة المذكورة نائب ، فتوجهنا للمرور على الخليج ، فمررنا من السويس إلى بورسعيد، وبعد المذاكرات والمداولات عملت الرسوم اللازمة ، وتحرر بذلك القرار ، وتمت المسألة على أحسن حال ، وأحسن إلىّ بعد إتمامها برتبة المتمايز ، وأعطيت النيشان المجيدى(١) من الدرجة الثالثة ، وبعث إلىّ من طرف الدولة الفرنسية بنيشان (أوفسيه ليثريون دونور).

وفى شهر جمادى الآخرة من سنة أربع وثمانين(٢) أحيلت علىّ وكالة ديوان المدارس تحت رئاسة شريف باشا ، مع بقاء نظارة القناطر الخيرية، وبعد قليل انتدبنى الخديوى إسماعيل للسفر إلى باريس فى مسألة تخص المالية ، فكانت مدة غيابى ذهاباً وإياباً وإقامتى بها خمسة وأربعين يوماً ، وكان سفراً مفيداً ، اغتنمت فيه فرصة الاطلاع على ما بهذه المدينة وقتئذ من المدارس والمكاتب الجمة ، واستحوذت على فهارس تعليماتهم والاطلاع على كتبهم المطبوعة هناك ، وتفرجت على مجاريها العمومية المعدة لقذف القاذورات والسائلات بها . وهى عبارة عن مبان(٣)، متسعة عظيمة الارتفاع تحت شوارع المدينة معقودة من أعلاها يتوصل إليها بسلالم فى فتحات مخصوصة فى الشوارع ، يدخل منها النور والهواء ،

---

(١) يمنح من الدولة العلية ، ولهذا نجد فى مجال العملة الجنيه المجيدى، والريال المجيدى .   (٢) سنة ١٨٦٧ م .

(٣) مثلما يجرى الآن فى القاهرة ، من استخدام هذه الطريقة فى الصرف الصحى .

وفى جنبيها حوالَىْ المجرى مسطبتان(١) تمشى عليهما الشغالة والفعلة(٢)، وينصبّ فى المجرى قاذورات المراحيض والمطابخ وغيرها ، ومياه الأمطار ونحوها بكيفية مدبرة بحيث لا يشم لها رائحة مع كثرة ما يسيل فيها .

وقد ركبنا صندلا(٣) يسير فى ذلك المجرى معداً لتنظيف المجرى وقذف ما به من المواد التى تعطل جرى الماء ، وذلك أنه مصنوع بقدر المجرى ، وبه جرافة من أمامه ودولاب ، فإذا أرادوا تسييره يديرون الدولاب فينحط(٤) الصندل نحو القاع بقدر ما يريدون ، فيرتفع الماء خلفه زيادة عن الأمام مع الانحدار الأصلى للمجرى ، فيندفع الصندل مسرعاً فى السير ، فيطرد أمامه كل ما لاقاه ، وجميع هذه المواد تتدفق فى نهر السين المار فى المدينة فى محل بعيد جداً عن المساكن . فيا لهذا العمل من عمل نافع ، تخلصت به المدينة من مياه الأمطار الغزيرة فى زمن الشتاء ، مع التخلص من القاذورات والروائح الكريهة التى لا تخلو منها الأمصار(٥) ، لاسيما المدن الكبيرة .

ثم بعد قليل من عودتى أحسن إلىّ فى سنة خمس وثمانين(٦) برتبة مير ميران(٧) ، وأحيلت على عهدتى إدارة (السكك الحديدية المصرية) ، وإدارة (ديوان المدارس) ، وإدارة (ديوان الأشغال العمومية) .

وفى شهر شوال من تلك السنة انضم إلى ذلك (نظارة عموم الأوقاف)

---

(١) ويقصد مصطبتان والأبلغ لغوياً بالصاد . (٢) بفتح الفاء والعين : جمع فاعل وهو الذى يستأجر يومياً للعمل فى الأرض وغيرها .

(٣) سفينة نقل قاعها مسطح تستخدم فى الأنهار ونحوها .

(٤) يهبط . (٥) المدن . (٦) سنة ١٨٦٨ م

(٧) أى أمير الأمراء أو الأمير الكبير انظر : الرتب والألقاب ص ٦٥ .

كل ذلك مع بقاء نظارة القناطر الخيرية ، والتحاقى برجال المعية ، فبذلت جهدى ، وشمرت عن ساعد جدى فى مباشرة تلك المصالح ، فقمت بواجباتها ، ولسبب اتساع ديوان السكة الحديدية ، وكثرة أشغاله ، كنت أذهب إليه من بعد الظهر إلى الغروب للنظر فيما يتعلق به ، وقد أجريت فى تنظيم السكة ومحطاتها ما ذكرت بعضه فى الكلام على الإسكندرية(١) فانظره ، وجعلت من الصبح إلى الظهر لباقى المصالح .

وكنت قد حصلت على الإذن بنقل المدارس من العباسية إلى القاهرة رفقاً بالتلامذة وأهليهم ، لما كان يلحقهم فى الذهاب إلى العباسية من المشاق والنفقة الزائدة ، فأحسن إلى المدارس بسراى درب الجماميز ، التى كانت قد اشتريت من المرحوم مصطفى باشا فاضل ، فنقلت إليها التلامذة وأجريت فيها إصلاحاً لازماً للمصالح ، وجعل السلاملك(٢) للديوان ، ووضعت كل مدرسة فى جهة من السراى ، وجعل بها أيضاً ديوان الأوقاف ، وديوان الأشغال ، فسهل علىّ القيام بها .

وكانت كثرة أشغالى لا تشغلنى عن الالتفات إلى ما يتعلق بأحوال التلامذة والمعلمين ، فكنت كل يوم أدخل عندهم بكرة وعشياً(٣) عند غدوّى من البيت ورواحى .

وأعملت فكرى فيما يحصل به نشر المعارف وحسن التربية ، وكانت المكاتب(٤) الأهلية فى المدن والأرياف جارية على العادة القديمة ليس فيها — على قلة أهلها — إلا تعليم القرآن الشريف ، وأقل من القليل من يتممه منهم ، ويجيد حفظه ، ويجوّده ويحسن قراءته ، مع رداءة الخط

---

(١) انظر كتابه الخطط التوفيقية ج ٧ (الجزء الخاص بمدينة الإسكندرية) (طبع بمكتبة الآداب) ، سنة ١٩٨٩ .

(٢) الطابق الأرضى . (٣) صباحاً ومساءً . (٤) الكتاتيب .

فى عامة المكاتب المذكورة ، فاستحسنت إجراءها على نسق المدارس المنتظمة ، فحررت لائحة بتنظيمها وترتيبها على الوجه الذى هى عليه ، ودعوت إلى النظر فى هذا الترتيب جماعة من أعلام العلماء والأعيان النبهاء فنظروا فيه ، واستحسنوه ووضعوا خطوطهم عليه ، وصدر الأمر الخديوى بالجرى على مقتضاه ، ورتب مفتشون لرعاية العمل بموجبه .

وأنشأت مدارس مركزية فى بعض مدن القطر كأسيوط والمنيا وبنى سويف وبنها(١) ، وانتخب لكل منها المعلمون والضباط ، وعين لها سائر الخدمة ، ورتبت بها أدوات التعليم ، ورغب الناس فى تعليم أولادهم بها ، وكثرت فيها الأطفال ، وأنشأت فى القاهرة والإسكندرية بعض مكاتب على هذا الأسلوب ، مثل مَكتبَى القربية(٢) أحدهما للبنات ، والآخر للأطفال الذكور ، ومكتب الجمالية ، ومكتب باب الشعرية ، ومكتب البنات بالسيوفية . ولأجل استفادة الأوقاف ، وتكثير إيرادها مع تخفيف المصرف(٣) على الحكومة ، كان بناء هذه المكاتب فى عقارات الأوقاف ، وعلى طرفها ، وربط لها على المكاتب إيجار يدخل خزينة الأوقاف ، وأجريت الإصلاحات اللازمة فى المكاتب القديمة ، فغيرت بعض مبانيها وأوضاعها الأصلية إلى حالة تصلح لما صارت إليه المكاتب من النظام ، وأقيمت لها النظار والمعلمون ، وأدوات التعليم ونحو ذلك .

وجعلت المصاريف اللازمة للمدارس والمكاتب جارية على وجه يستوجب انتظامها ، مع خفة المصرف على الديوان ، فجعل على أهالى

---

(١) بكسر الباء مدينة بالوجه البحرى تقع على الجانب الشرقى لفرع دمياط .

(٢) كان شارع القربية يبدأ من شارع باب زويلة وينتهى أول شارع الحمزية .

(٣) تقليل الإنفاق .

التلامذة المقتدرين شيء من النقود يؤخذ منهم برغبتهم كل شهر ، على حسب اقتدارهم من غير تثقيل عليهم ، استمالة لقلوبهم . واستدعاء لرغبتهم ، وجعل لذلك استمارة حفظت فى المدارس ، وفى كل مكتب ، وباقى المصروف يصرف من حاصلات الأوقاف الخيرية الموقوفة على المكاتب ، وغيرها من وجوه الخيرات ، والمبرات وأطيان الوادى بمديرية الشرقية ، وكان قد أحسن على المكاتب الأهلية بهذه الأطيان ، وبعض أملاك آلت إلى بيت المال من بعض التركات ، فكان من هذه الموارد يصرف كل ما يلزم لهذه المكاتب بعد النفقات الجزئية المتحصلة من ذوى الاقتدار من أهل التلامذة .

وكان القصد تعويد الناس للصرف على أولادهم بالتدريج ، شيئاً فشيئا ، حتى لا يبقى مع توالى الأزمان على الحكومة إلا ما يختص بالمدارس الخصوصية ، كالمهندسخانة والطب والإدارة ، ونحوها .

وأما باقى المدارس ، فيكون الصرف عليها من الأهالى والأوقاف والأملاك المذكورة ، إذ بذلك تدوم الرغبة ، وتتسع دائرة التعليم .

وقد تأسس هذا المشروع وثبت ، وسرت فيه إلى أن انفصلت عن المدارس ، وحصلت منه نتائج حسنة ، وخرج من التلامذة الذين تربوا بالمدارس فى مدتنا جم غفير(١) ، توظفوا بالوظائف الميرية(٢) الشريفة : ملكية وحربية ، وانتفعوا وانتفع بهم .

ثم لأجل تسهيل التعليم على المعلمين والمتعلمين وصون ما تعلموه عن الذهاب ، جعل بالمدارس مطبعة حروف ، ومطبعة حجر ، لطبع كل ما يلزم من الكتب ، وأمشق(٣) الخط والرسم ، وغير ذلك .

وحيث كان من أهم ما يلزم للمدارس الحصول على معلمين مستعدين

---

(١) دلالة على الكثرة . (٢) الحكومية . (٣) مشق الكتابة مد حروفها .

للقيام بسائر وظائف التعليم، أمعنت النظر فى هذا الأمر المهم، واستحدثت مدرسة دار العلوم(١) بعد استصدار الأمر بها، وجعلتها خاصة لعدد كاف من الطلبة، يؤخذون من الجامع الأزهر، ممن تلقوا فيه بعض الكتب العربية والفقه بعد حفظ القرآن الشريف، ليتعلموا بهذه المدرسة بعض العلوم المفقودة من الأزهر، مثل الحساب والهندسة والطبيعة والجغرافيا والتاريخ والخط، مع فنون الأزهر من عربية وتفسير وحديث وفقه على مذهب أبى حنيفة النعمان(٢)، وجعل لهم مرتب شهرى يستعينون به على الكسوة وغيرها من النفقات، ورتب لهم طعام فى النهار للغداء، وجعل الصرف عليهم من طرف الأوقاف، ورتب لهم من لزم من المعلمين من المشايخ العلماء، وغيرهم ليقوموا بأمر تعليمهم وتدريبهم، حتى يتمكنوا من هذه الفنون، فينتفعوا وينفعوا، ويجعل منهم معلمون فى المكاتب الأهلية بالقاهرة وغيرها، لتعليم العربية والخط ونحو ذلك.

فلما أشيع هذا الأمر وأعلن، حضر كثير من نجباء طلبة العلم بالأزهر يطلبون الانتظام فى هذا السلك، فاختير منهم بالامتحان جماعة على قدر المطلوب، وساروا فى التحصيل، فحصلوا، وأثمر ذلك المسعى، وخرج منهم معلمون فى القاهرة وغيرها، وحصل النفع بهم ولهم.

وأما المعلمون فى غير العربية كالهندسة والحساب واللغات ونحو ذلك، فتقرر أن يكونوا من نجباء التلامذة المتقدمين، الذين أتموا دروس المدارس العالية، كالمهندسخانة والمحاسبة والإدارة، بأن يجعلوا أولا

---

(١) بدأت منتدى فى يوليو ١٨٧١ م (ربيع الثانى ١٢٨٨ هـ) ثم أصبحت مدرسة عالية فى ٣٠ يوليو ١٨٧٢م (٢٤ جمادى الأولى ١٢٨٩هـ).

(٢) إمام المذهب الحنفى، ولد سنة ٨٠ هـ (٦٩٩م) وتوفى سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧م).

معيدين لدروس المعلمين زمنا ، ثم يكونوا معلمين استقلالا بالمدارس والمكاتب ، كل على حسب استعداده ، سوى من يؤخذ إلى غير المدارس من مصالح الحكومة ، وقرر ذلك ، وعلم بينهم ، فرغبت التلامذة فى التعلم ، واجتهدوا وحرصوا على التقدم ، وحصلوا على مهمات الفنون ، وتمكنت الحكومة من توسعة دائرة التعليم بلا كبير مصرف .

ولما لم يكن بمصر دار كتب جامعة عامة يرجع إليها المعلمون للاستعانة على التعليم كما فى مدارس البلاد الأجنبية ، أنشىء محل بجوار المدارس من داخل سراى درب الجماميز المذكورة لهذا الغرض ، وصرف عليه من مربوط المدارس ، فجاء محلا متسعا يزيد عن لوازم المدارس من الكتب وأدوات التعليم ، وقد كان الخديو إسماعيل يرغب فى إنشاء كتبخانة عمومية تجمع الكتب المتفرقة فى الجهات الأميرية ، وجهات الأوقاف فى المساجد ونحوها ، وأمرنى بالنظر فى ذلك ، فوصفت له المحل الذى أنشىء ، فعين لمعاينته جماعة من الأمراء والعلماء ، فاستحسنوه ووجدوه فوق المرام ، فصدر الأمر بأن تجمع فيه الكتب المتفرقة ، فجمعت من كل جهة ، وجعل لها ناظر وخدمة ، وخصص لها مغير(١) من علماء الأزهر لمباشرة الكتب العربية ، وآخر لمباشرة الكتب التركية ، ونظمت لها لائحة ، ثم نشرت تؤذن بإباحة الانتفاع بها للطالبين ، وسهولة التناول للراغبين مع الصيانة لها ، وعدم التفريط فيها ، فجاءت بحمد الله من أنفع الإنشاءات ، وأثنى عليها الخاص والعام من الأهلين والأغراب ، إذ تخلصت بها الكتب من أيدى الضياع ، وتطرق الأطماع ، فإنها كانت تحت تصرف نظار أكثرهم يجهلون قيمتها ، ولا يحسنون التصرف فيها ، ولا يقومون بواجباتها ، بل أهملوها وتركوها ، فسطت عليها عوارض

---

(١) أى رجل متعمق النظر ، ويقال « فلان بعيد الغور » .

متنوعة ، أتلفت كثيراً منها حتى صار السالم من الضياع مخرماً بعضه بأكل الأرض وبعضه بأكل الأرضة(١) ، وزاد أن تصرفوا فى أجودها بالبيع للأغراب بثمن بخس ، وحرموا الأهلين من الانتفاع بها ، وبعضها يحجر عليه ، فلا يتمكن أحد من النظر إليه ، فتخلصت من ذلك ، فضلا عن صونها من هذه العوارض ، ونظافتها ونظافة أماكنها ، وحسن ترتيبها : كل فن على حدته .

وجعل بها محل للاطلاع على الكتب والمطالعة والمراجعة فيها ، والنسخ والنقل منها ، ورتب فيه ما يلزم للكتابة من الأدوات بحيث يتيسر بهذا الموضع لكل من شاء غرضه من ذلك متى شاء ، وأمكن الاطلاع على خطوط الملوك والمؤلفين والعلماء والمتقدمين ومشاهير الخطاطين كابن مقلة(٢) وغيره ، مما كان يسمع به الإنسان ولا يراه ، أو لا يسمع به .

وأخذت بعد إنشائها وافتتاحها فى تكميل الناقص من الكتب ، وتجديد شراء كل ما يستحسن ، وأمكن تحصيله مما ليس موجوداً بها من الكتب ، ومشى على هذه الطريقة كل من رضيها ، ورأى إتمام الفائدة بها ممن تولوا على نظارة المدارس والأوقاف بين مكثر ومقل .

ولأجل إتمام الفائدة ألحقت بهذا المحل محلا للآلات الطبيعية وغيرها من آلات العلوم الرياضية اللازمة للمدارس ، وصرف لمشترى تلك الآلات نحو أربعة آلاف جنيه ، وبجميع ذلك سهل على التلامذة والمعلمين السير فى طرق التقدم ، وتقيدت لديهم شوارد الفنون ، وتمكنوا منها

---

(١) بفتح الراء ، دويبة تقرض الخشب ، والسوس ينخر الورق.
(٢) من الشعراء والأدباء ، يضرب بحسن خطه المثل ، ولد فى بغداد سنة ٢٧٢ هـ (٨٦٦ م) وتوفى سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م) .

بالمعاينة والتمرن على استعمال تلك الآلات ، واجتلاء المعقول فى صورة المحسوس ، فتعاضد الفكر والنظر والعلم والعمل .

ثم إنه قد حصل من انضمام الأوقاف للمدارس مساعدة كل منهما الآخر مساعدة كلية ، إذ صار أمر التعليم فى المكاتب ملحوظاً بعين المدارس ، فكان سيرهما فى التعليمات والتنبيهات والامتحانات السنوية وغيرها سواء ، وتيسر لمن أكملوا دروسهم الابتدائية فى مكاتب الأوقاف والمكاتب الأهلية المنتظمة دخول المدرسة التجهيزية ، والتدرج منها إلى المدارس العالية ، وبذلك صار يؤخذ منهم بالرغبة والأهلية كل سنة عدد عديد ، كما يؤخذ من تلامذة المدارس الإبتدائية الأميرية ؛ وأحييت المدارس كثيراً من عقارات الأوقاف المندرسة(١) وانتفعت بها كما مرت الإشارة إلى ذلك .

وكم من أهل خير فى الزمن السابق كانوا قد أنشأوا مدارس بالمحروسة(٢) والإسكندرية وكثير من مدن القطر للتعليم والتربية حسبة لله تعالى(٣) ، ووقفوا عليها أوقافاً خيرية جمة يصرف عليها ريعها(٤) ، رغبةً فى نشر العلوم ، وعود الفوائد على عموم الناس ، بل كثير منهم ألحق بذلك خزائن كتب شاملة لما يحتاج إليه فى التعليم ، ولكن لسوء تصرف نظارها انحرفت عن الصراط المستقيم صراط الواقفين الراغبين فى الخيرات ، وصار مايسلم من الهدم والتخريب يستعمل أكثره فى أغراض أخرى ، والمستعمل فى الغرض الأصلى — على قلة — لا يستوفى فى سيره شروط الواقف ، وحد اللازم . وساءت حال التعليم فى المكاتب الحاصلة ،

---

(١) التى محيت وذهب أثرها ، ومن الأفضل قوله : عقارات الأوقاف المهجورة . (٢) يقصد القاهرة . (٣) يطلبون ثوابها عند الله .
(٤) بفتح الراء وتسكين الياء وهو الجزء الذى يؤديه المستأجر إلى المالك

وقلّ المعلمون والمتعلمون ، وصار اجتماع الأطفال والمتعلمين بهذه الأماكن قليل النفع ، بحيث كان لا يفيدهم إلا الضياع والأمراض الناشئة عن الوسخ والتفريط ، فحصل رجوع كثير من هذه العمائر إلى أصلها المقصود منها ، والفائدة الموضوعة لها ، وانضمت إلى ديوان الأوقاف العمومى ، لتكون إدارتها تحت نظره مشمولة بمناظرة ديوان المعارف وترتيبه ، فتخلص من أطماع النظار ، وحصل رم(١) ما احتاج إلى الإصلاح من المدارس ومن أوقافها التى يأتى منها الريع ، وانتزع ما استولت عليه الأيدى من غير استحقاق ، فانضبط أمرها وإيرادها ، فحييت هذه المآثر بعد موتها ، وعادت ثمراتها بعد فوتها .

ثم إن هذا النظر لم يكن قاصراً على المدارس واوقافها ، بل حصل الالتفات لجميع الأوقاف من التكايا(٢) والمساجد وغيرها بالإصلاح والتجديد ، وكان ما بالأقاليم من الأوقاف من أطيان وعقارات — على كثرته — غير ملتفت إليه . فكان السالم من التلف من السبل(٣) ونحوها مستعملا فى غير وجهه ، تحت أيدى غير مستحقيه ، فانتخب لها من طرف الأوقاف مأمورون من المهندسين الذين تعلموا فى المدارس ، وأرسلوا إلى الأقاليم للنظر فى أمر الأوقاف وضبطها ومعرفة ريعها ، ومايلزم لها من العمارات ، وتحصيل غلاتها ، وملاحظة مصروفاتها . وجعل المندوبون للوجه البحرى تابعين فى إدارتهم لمأمورية طندتا(٤) ، والمعينون فى الوجه القبلى يخاطبون من الديوان ، فضبطوها وحرروا جداولها ، وفعل بها ما هو الأصلح لها ، فانتظم سيرها ونمى ريعها .

---

(١) ترميم . (٢) جمع تكية وهى رباط الصوفية .

(٣) جمع سبيل وهو ما يوضع فى الطريق لينتفع به المارة .

(٤) اسمها الأصلى ، ثم حرفت إلى «طنطا» .

ثم إن الذى كان متبعاً فى العمائر بالمدن الكبيرة كالقاهرة والإسكندرية إجراؤها على طرف الديوان ، وكان لها معمارية وشغالة وعربات ونحو ذلك بمرتبات جسيمة شهرية ، ومصاريف كثيرة تزيد عن قيمة ما يحصل فيها من الإنشاء والعمارة ، فضلا عن عدم الإتقان ، وكان يحصل من القائمين بأمرها الإهمال والتفريط فيها ، وكان ما يجرى تعميره فى السنة — مع عدم إتقانه وكثرة ما يصرف عليه — قليلا بالنسبة للمحتاج للعمارة ، وكان الديوان لا يتمكن من الحسابات السنوية . فبقيت عمارات كثيرة لم ينته الأمر فيها، ولا فى حساباتها عدة سنين طويلة . وكان الذى يعمر منها — مع خفة بنائه ورداءة مونته(١) — يحول من أوضاعه الأصلية الحسنة إلى أوضاع سيئة ، فكنت ترى الدور المتسعة والمنازل الكبيرة حولت إلى حيشان(٢) وربوع يسكنها الكثير من الناس ، بحيث تحمل فوق طاقتها لزعم ولاتها أن فى ذلك تكثيراً لريع الوقف ، مع أنهم كانوا ما يورثونها إلا التخريب وإضاعة ما بها من نحو الأخشاب ، وولاتها غافلون لا يعرفون إلا قبض الأجرة ، فكان ما يتلف سنوياً من عقارات الأوقاف أكثر مما كان يعمر بأضعاف ، وهذا ضرر بيّن(٣)، فحصل الالتفات إلى ذلك ، وعملت الطرق الموجبة لعمارة الأوقاف وكثرة ريعها وقلة مصرفها على الديوان ، فجعل فى أثمان(٤) القاهرة مأمورون من المهندسين ، وكتبة ومعاونون ، وصار الجباة تابعين للمأمورين ، وشدد عليهم فى الالتفات إلى ما نيط(٥) بهم ، بحيث أن من فرّط فى أمر

---

(١) هى تسهيل « مؤونة » ويقصد ما يخلط من مواد البناء .

(٢) مفردها حوش وهو شبه الحظيرة . (٣) واضح ، بالغ.

(٤) الأثمان جمع ثُمن وهو ما يقابل القسم أو الحى فى عصرنا الحاضر وكانت القاهرة مقسمة إلى ثمانية أقسام . (٥) عهد إليهم .

يجرى عليه ما يستحقه ، ففتحوا أعينهم ونصحوا فى سيرهم خوفا على أنفسهم ، فاستقام أمر كثير من الأوقاف وحسنت أحوالها .

ثم من أنفع الأعمال فى الأوقاف ما أجرى فيها من إبطال جعل إدارة عمائرها على طرف الديوان ، وصارت تعطى بالمقاولة للمقاولين بعد النظر فيها من مأمورى الأثمان وباشمهندس الديوان ، وعمل رسوماتها اللازمة ، وتقدير نفقاتها الموافقة ، وجعل لذلك لوائح واستمارات نشرت بينهم جعلت قدوة لهم فى الأعمال .

ثم قسمت أراضى الوقف الواسعة الخربة كالتى فى جهة السيدة زينب وخلافها على الراغبين ، يبنون فيها منازل وحوانيت وغير ذلك ، بحكر(١) يقرر عليهم يدفعونه كل سنة للأوقاف ، وقرر فى الاستمارة أن الآخذ بالحكر يدفع لخزينة الأوقاف حكر عشر سنين تبرعاً منه ، بحيث لا يحسبها فى المستقبل ، ثم يدفع الحكر سنوياً ، فأنشىء من ذلك مساكن كثيراً ما كانت مطرحا(٢) للزبل والعفونات والأقذار ، فبعد أن كانت تجلب المضار للناس صارت نافعة تجلب ريعاً كثيراً للوقف ، وتبدلت سيئاتها حسنات . واستعين بذلك على التنظيم الجارى فى المدن بالأوامر الخديوية ، لتوسعة الشوارع والحارات وتقويمها ، وتجديد ما يلزم تجديده منها ، لتكون شوارع المدينة ومبانيها كافية صالحة لأحوالها الحاضرة من اتساع دائرة التجارة والثروة التى اكتسبها القطر ، إذ بذلك كثرت عربات الركوب وعربات البضائع والعمائر ، فصار غير لائق بها بقاء الحالة القديمة على ما كانت عليه من ضيق الحارات والشوارع واعوجاجها ، إذ كان الازدحام بها يترتب عليه النصب والعطب الخطر والضرر .

وصدرت الأوامر الخديوية لديوان الأشغال ، ونحن به ، بالنظر فى

---

(١) احتباس الوقف من العقار تحت مرتب معين .
(٢) اسم مكان من طرح بمعنى ألقى .

ذلك ، وأن يعمل له قانون يأتى على المرام ، وكان قبل ذلك رسم القاهرة محولا على فرقة من المهندسين تحت رئاسة المرحوم محمود باشا الفلكى ، فرسموها على ما كانت عليه ، وبناء على هذا الرسم كتبت الإشارة فوقه بعمل هذه التنظيمات الموجودة بالمدينة المشاهدة الآن ، مثل شارع محمد على وميدانه ، وشوارع الأزبكية وميدانها ، وما بعابدين من الشوارع ونحوها ، وباب اللوق وغير ذلك مما هو بداخل المدينة وخارجها . وجرى العمل على ذلك ، فظهرت كل هذه المبانى الحسنة والشوارع المستقيمة المتسعة المحفوفة بالأشجار الخضرة النضرة المستوجبة للقادمين على المدينة انشراح الصدور والفرح والسرور ، وأزيل ما كان بجهتها البحرية من التلال التى كانت تمتد من جهة الفجالة إلى قرب باب الفتوح .

ثم تبرع الخديوى إسماعيل باشا على الراغبين بمواضع كثيرة ، فأنشأوا بها المبانى المشيدة والبساتين العديدة .

وناهيك(١) بقصور الإسماعيلية ودورها وبساتينها وشوارعها التى يكل الوصف عن محاسن بهجتها وأحاسن رونقها ونضرتها ، وقد كانت أراضيها بين خلوات متسعة وتلال مرتفعة وبرك منخفضة وغابات معترضة ، ولم يكن بها صالح للزرع ومأهول(٢) بالناس إلا القليل ، فأنعم بها الخديوى بلا مقابل رغبة فى العمران والنظافة وحسن الهيئة ، فكم زال بذلك من عفونات وقاذورات ومشاق وصعوبات .

وزاد فى بهجة المدينة واكتسابها نوراً على نور ، ما أحدثته شركة من الإفرنج بإذن الخديو من نشر غاز التنوير(٣) بها فى سائر شوارعها وضواحيها ، حتى ذهبت غياهب ظلامها والتحقت لياليها بأيامها(٤) .

---

(١) بمعنى كافيك عن السؤال عن غيره .

(٢) مأنوس ومسكون .   (٣) أى الإنارة .

(٤) الصواب قوله التحقت لياليها بنهارها ؛ لأن الليل جزء من اليوم .

ثم لأجل زيادة الأمن والتسهيل على الخاص والعام ، صدر أمره بعمل القناطر الحديد المعروفة بالكوبرى بين قصر النيل والجزيرة على هذا الوجه البديع ، وعملت السكك المنتظمة فى بر الجزيرة ، وحفت(١) بالأشجار ، وفرشت بالأحجار الدقيقة المختلطة بالرمل لمنع الأتربة ، وتسهيل المرور إلى العمائر والسرايات والبساتين المنشأة هناك التى تجل عن الوصف ، كما فعل ذلك فى جميع الشوارع المستجدة بالمدينة وضواحيها بشركة من الإفرنج أيضاً ، حيث أقامت وابور المياه ، الذى عم جميع جهات المدينة ، حتى تمتعت الأهالى بماء النيل بلا كبير ثمن ولا مشقة . وكل ذلك فوق الأعمال الجسيمة(٢) التى أجريت فى جهات القطر ، مثل ما تجدد بالإسكندرية ، وما تجدد بالسويس من عمل الميناء والحوض ، والمحافظة وشركة المياه ، وما رسم فى المديريات من عمل الدواوين والجسور والقناطر والترع التى من أعظمها ترعة الإبراهيمية ، وترعة الإسماعيلية التى حفرت بالمقاولة(٣) .

فهذه الأعمال جميعها أو أكثرها كنت أنفذ أوامرها بوضع رسومات وشروط مع المقاولين ونحو ذلك لضرورة تعلقها بديوان الأشغال . فكنت فى مدة إحالة هذه الدواوين على ، مشغولا بالمصالح الأميرية ، وتنفيذ الأغراض الخديوية ليلا ونهاراً حتى لا أرى وقتاً ألتفت فيه لأحوالى الخاصة بى ، ولا أدخل بيتى إلا ليلا ، بل وكنت أفكر فى الليل فيما يفعل بالنهار، لاسيما وأعمال القنال(٤) الملح كانت قد تمت ، وكان الخديو قد صمم لتمامها على عمل مهرجان ، ودعا لذلك كثيراً من ملوك

---

(١) زينت على جانبيها .   (٢) الضخمة .

(٣) هى اتفاق بين طرفين يتعهد أحدهما بأن يقوم للآخر بعمل معين بأجر محدود فى مدة معينة .   (٤) قناة السويس .

أوربا وسلاطينها وعظمائها ، وهذه الحالة تستدعى استعداد السكك الحديد وعرباتها وتهيئة المدينة لدخولهم . فكنت مع النظر فى أحوال تلك الدواوين مشغول الفكر دائم السفر فى مصالح هؤلاء المدعوّين إلى أن انقضى جميع ذلك على أحسن حال ، وأحسن إلينا من طرف الخديو بالنيشان المجيدى(١) من الرتبة الثانية ، وأهدى إلينا من طرف قرال النمسا نيشان (غرانقوردون) ، ومن طرف قرال فرنسا نيشان (كاندور) ، ومن دولة البروسيا نيشان (غرانقوردون) . وغير ذلك من النياشين .

وقد بقيت تلك المصالح تحت يدى إلى رمضان سنة ثمان وثمانين(٢)، ثم انفصلت عن ديوان السكة ، ثم عن المدارس والأشغال بعد أيام قلائل ، ثم عن الأوقاف بعد مضى قليل من شوال من تلك السنة ، وكانت أسباب الانفصال أن ناظر المالية إذ ذاك ، وهو المرحوم إسماعيل باشا صديق(٣)، كان قد رغب أن يضم دخل السكة الحديدية إلى المالية ، وحصل الكلام بيننا فى ذلك فقلت له : «لا مانع وإنما يكون الصرف على السكة الحديدية تابعاً للمالية حينئذ ، ولا أكون مسئولا إلا عن مجرد إدارتها بشرط أن يصدر أمر الخديو بذلك حتى لا يعود علىّ سؤال فيما عساه أن يحصل من الضرر» فلم يوافق ذلك أغراضه . ورمانى بما رمى ، فترتب عليه ما ترتب. لكنى لم أقم فى بيتى إلا نحو شهرين .

---

(١) سبق ذكره ص ٤١ . (٢) سنة ١٨٧١ م .

(٣) كان مفتشاً لعموم القطر، وهو أخو الخديوى إسماعيل فى الرضاعة، تصرف فى شئون القطر ببيع المناصب وتلق الرشوة . وقدرت ممتلكاته بأكثر من ثلاثين ألف فدان غير القصور والمجوهرات والأسهم والجوارى ويقدر عددهن بأكثر من ٧٠٠ جارية ، وعندما اختلف مع الخديوى إسماعيل دبر له من قتله غرقاً سنة ١٨٧٦ م .

ثم صدرت الأوامر الخديوية في يوم عيد الأضحى بجعلي ناظراً على ديوان المكاتب الأهلية ، وأمرت بتنظيم ديوانها ، وعمل رسومات لتجديد مكاتب في مدن الأرياف وبلادها كل على حسبه(١) ، وما يناسبه، لعلم الخديو أن مكاتب الأرياف غير مستوفية لدواعي الصحة ، ولا لشروط النجاح في التعليم . فرسمت ذلك ، وألحقت به تقريراً لبيان مايلزم اتباعه في جميع المكاتب بحسب الأهمية ، وكان الغرض عمل نموذج في كل جهة ليجري البناء على مثله ، لكن عرضت عوارض(٢) أخرت ذلك .

وفي شهر ربيع الأول سنة تسع وثمانين(٣) أحيل عليّ نظر الأوقاف ثانياً ، وبعد قليل أحيل عليّ نظر ديوان الأشغال ، فلم يمض إلا يسير حتى تحولت نظارة هـذه الدواوين على نجل الخديوي إسماعيل باشا دولتلو(٤) « حسين كامل باشا » ، فبقيت بمعيته بوظيفة مستشار .

وفي جمادى الآخرة سنة تسعين(٥) انفصل ديوان الأشغال بنفسه تحت رياسة المشار إليه وجعلت وكيله . وفي شهر شعبان من هذه السنة جعلت عضواً في المجلس الخصوصي ، وبعد قليل انفصلت عن الخصوصي بسبب ما ألقاه إليه الواشون كإسماعيل باشا صديق وأضرابه من أن كتابنا « نخبة الفكر » الذي أمرني بتأليفه ، فيما يتعلق بأمر النيل ، مشتمل على ذم الحكومة الخديوية وتقبيح سياستها ، فأقمت في بيتي مع جريان(٦) الماهية عليّ من المالية .

ثم في شهر صفر سنة إحدى وتسعين(٧) جعلت رئيس أشغال الهندسة بديوان الأشغال منذ كان هذا الديوان ملحقاً بديوان الجهادية تحت نظارة دولتلو « حسين باشا » المشار إليه . ولما انفصل ديوان الجهادية ،

---

(١) على حسب أهميته . (٢) موانع . (٣) ١٨٧٢ م .
(٤) لفظ تعظيم بمعنى صاحب الفخامة أو صاحب الدولة .
(٥) ١٨٧٣ م . (٦) استمرار صرفها . (٧) ١٨٧٤ م .

ألحق بديوان الداخلية تحت نظارة نجله الأكبر الجناب التوفيقي(١) الخديو الأنفخر ، وكان إذ ذاك ولي عهد الحكومة الخديوية المصرية .

وفي سنة اثنتين وتسعين(٢) جعلت مستشاراً بمعيته في ديوان الأشغال. وفي شهر ذي القعدة من تلك السنة انفصل ديوان الأشغال بنفسه تحت نظارة دولتلو « إبراهيم باشا » نجل المرحوم أحمد باشا ، فبقيت بمعيته مستشاراً بهذا الديوان .

وفي بكرة يوم الأضحى من سنة ثلاث وتسعين(٣) غدوت لملاقاة الخديو إسماعيل باشا وتهنئته بالعيد الجديد على حسب العادة ، وكان بسراي عابدين ، وقد اجتمعت هناك جميع الأمراء والأعيان والمشايخ وأرباب التشريفات لتهنئته ، وتهنئة أنجاله على حسب العادة ، فقابلناه أثر(٤) صلاة العيد ، وهنأناه ، فأكرمني إكراماً زائداً ، وأنعم على بالنيشان المجيدي من الرتبة الأولى (غرانقوردون) .

وبقيت على هذه الحال إلى أن ظهر في سنة ١٨٧٦ ميلادية(*) قصور الحكومة عن أداء ما عليها لكثرة ما أصدرته من البونات(٥) ، وما أثقل كاهلها من الديون ذات الأرباح الكثيرة حتى أدى ذلك إلى الحجز على أغلب أملاكها ، وإلى تداخل الدول الأجنبية في أمورها ، وآل الأمر إلى تعيين لجنة من معتمدي الأجانب ذوي خبرة للنظر في المالية وفروعها ، وجعل في هذه اللجنة دولتلو « رياض باشا » نائباً من طرف الحكومة المصرية ، فكان هو الذي عليه المعول(٦) في معرفة الحقائق ، وتم الأمر

---

(١) يقصد الخديوي توفيق . (٢) سنة ١٨٧٥ م .
(٣) سنة ١٨٧٧ م . (٤) عقب أو بعد . (٥) الصكوك .
(*) يلاحظ استخدام علي باشا مبارك للتاريخ الميلادي بدءاً من ذكره لديون مصر ، أما كل ماسبق فكان مؤرخاً بالهجري !! .
(٦) بضم الميم مع فتح وتشديد الواو بمعنى المعتمد .

بتقرير هيئة للحكومة على أسلوب جديد . فترتبت فى سنة ١٨٧٨ ميلادية هيئة نظارة يرأسها دولتلو نوبار باشا(١) ، فكمنت من رجالها ناظراً على ديوانى الأوقاف والمعارف .. وصدر الدكريتو(٢) من لدن الحضرة الخديوية من منطوقه أنى أريد عوضاً عن الانفراد المتخذ الآن طريقاً فى الحكومة المصرية أن تكون لهذه الهيئة إدارة عامة على المصالح ، بمعنى أنى أروم القيام بالأمر من الآن فصاعداً بالاستعانة بمجلس النظار والاشتراك معهم فى تسيير المصالح ، وأن يكون أعضاء مجلس النظار كل منهم كفيلا بالآخر ، يتفاوضون فى جميع المهمات ، ويتداولون الرأى فيها ، ويقررون ما تستقر عليه أغلبية الآراء ، وتصدر قرارات المجلس على حسب الأغلبية ، وأقررها بالتصديق عليها ، ثم ينفذها النظار ، فجرى العمل بذلك ، وأخذت هيئة النظارة فى إدارة المصالح على هذا النمط ، وشرعت فى تسديد الديون من دخل البلاد ومن قرضة(٣) استدانتها من بنك روتشلد بلوندره(٤) وهى ثمانية ملايين ونصف مليون من الجنيه الإنجليزى ، ورهنت فى ذلك أملاك العائلة الخديوية من أراض زراعية وغيرها بعد تنازلهم(٥) عنها للحكومة ، وكان مبلغ إيرادها سنوياً أربعمائة ألف وستة وعشرين ألف جنيه إنجليزى ، وجعلت لإدارة تلك الأملاك مصلحة مستقلة عرفت بمصلحة الدومين(٦) .

---

(١) ولد سنة ١٨٢٥ م وتوفى ١٨٩٩ .

(٢) القرار . (٣) سلفة .

(٤) هى لندن . وهذا الدين تم سداده فى سنة ١٣٣١ هـ (١٩١٣ م) .

(٥) تنازل الخديوى عن بعض أملاكه من الأطيان فى ١٠ يناير ١٨٧٩م

(٦) مصلحة الأملاك Domaine كانت تدير الأملاك الضامنة لهذا الدين وتم إلغاؤها بعد تسديد الدين. انظر : تاريخ مصر من الفتح العثمانى ص ٢٦١

وفى تلك المدة صرفت ما فى وسعى فى توسيع دائرة المعارف ،
فشرعت فى بناء بعض المدارس كمدرسة طنتدا(١) ومدرسة المنصورة ،
وفى تكثير عدد المكاتب وترتيب المدرسين ومايلزم للتعليم من أدوات
وكتب ، واعتنيت بأمر الأوقاف ، ونشرت المعاونين للكشف عن
الأماكن وبيان المتخرب منها والعامر ، وما يناسب استبداله وتجديده
على حسب ما يعود بالمصلحة على الأوقاف ، وبيان الأصقاع(٢) ونحو
ذلك ، وكان أكثر مكاتبها متعطلا ما بين دارس وفاقد ثمرة التعليم لعدم
لياقة المعلمين للتعليم . فوجهت الهمة نحوها حتى ظهرت بالتدريج النتيجة
للمتعلمين وأهليهم . ولما تمت دفاتر الأماكن والمكاتب التى بالمدن
والقرى ، أخذت فى إنجاز مقتضياتها على حسب نصوص وقفياتها ،
مراعياً فى ذلك ما فيه المصلحة وما يقره المفتى . وكانت هيئة النظارة
مساعدة للمعارف والأشغال العمومية وكل مافيه التقدم ، وقد اهتمت
بتنظيم أمر الإيراد والمصرف ، وأبطلت من المغارم(٣) ما يبلغ نحو
مليونين من الجنيهات ، ولكن ألجأتها ضرورة الاقتصاد إلى إلغاء بعض
المصالح ، وقطع المرتبات الجارية على غير قانون ، كالإنعامات ومرتبات
الإشراقات ، وتنزيل عدد الجيش العسكرى إلى القدر الكافى لاحتياجات
البلاد وبذلك أحيل كثير من ضباط العسكرية على المعاش ، فأساءت هذه
الإجراءات ونحوها كثيراً من الناس سيما ضباط العسكر ، وحصل
اللغط(٤) بذم الهيئة ، والتنديد على(٥) أعمالها ، وكثرة القال والقيل ،
حتى تجمع كثير من ضباط العسكر حول المالية ، يطلبون متأخراتهم ،

---

(١) طنطا .
(٢) النواحى .
(٣) الخسائر .
(٤) الصوت والجلبة وكثرة الحديث .
(٥) الفعل ندد يتعدى بالباء ، والمعنى التنديد بها على أعمالها .

وجرت منهم أمور جاوزت حد الأدب ، فتشوشت الأفكار داخل القطر وخارجه ، واضطربت الأحوال ، ولم يزل الاضطراب يتزايد حتى صار وسيلة للقول بعدم موافقة هيئة النظارة لحال البلد . وانبنى على ذلك سقوطها .

وفى ١٨ من أبريل سنة ١٨٧٩ ميلادية صدر الأمر العالى لشريف باشا بترتيب هيئة نظارة تحت رياسته تنتخب من الوطنيين ، فرتبها ، وعملت لائحة لسداد الدين عرفت باللائحة الوطنية ، جعلت أكثره فائدة لأصحاب الدين استمالة لهم ، فلم تنجح المقاصد ، وكتب القناصل بذلك إلى دولهم ، فلم يرتضوه ، وانتهت الحال بسقوط تلك النظارة .

وفى ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ صدر الأمر السلطانى بانفصال الخديو إسماعيل باشا عن سند(١) الحكومة المصرية ، وأن يتولاها أكبر أنجاله الفخام ولى عهد الحكومة المصرية يومئذ الخديو المعظم المبجل أفندينا محمد باشا توفيق(٢) الأول ، فأخذ رحمه الله بزمام الأحكام وقام بالأمر أتم القيام .

وفى سنة ١٨٨٠ صدر أمره الكريم إلى سعادة دولتلو رياض باشا بتشكيل نظارة تحت رياسته مقلداً هو نظارة الداخلية . فكنت من رجال تلك الهيئة مقلداً بنظارة الأشغال العمومية . وكان إذ ذاك فى الحكومة اثنان من طرفى دولتى فرنسا والإنجليز يراقبان أمور المالية ، وهما موسيو (دوبلنيير الفرنسى) والمسيو (بارنج(٣) الإنجليزى) ، فجعل لهما الحق فى حضور جلسات هيئة النظارة . وشرعت النظارة فى إدارة المصالح ، وسن القوانين العادلة ، وجعل الأموال الأميرية على

---

(١) حكم . (٢) ولد سنة ١٨٥٢ م وتوفى ١٨٩٢ م .
(٣) هو السير إفلين بيرنج .

أقساط مقررة ، وأوسعت فى معاش المستخدمين وفى عددهم بما يلائم كل مصلحة ، واهتمت بكل ما فيه التقدم كأمر التربية ومصالح الأشغال حتى بلغت ميزانية ديوان المعارف ضعف ما كانت عليه . وبعد أن كان ديوان الأشغال قلما يضاف تارة إلى ديوان الداخلية وتارة إلى غيره ، وكانت جميع الأعمال ما عدا المقايسات يجريها المفتشون والمديرون ونحوهم . فيعملون برجال العونة(١) مبانى وترعا ومساقى على أغراضهم الخاصة بلا فائدة عامة ، حتى كثرت الخلجان ، وضاعت بسببها مزارع كثيرة ، وضاعت المصارف التى عليها مدار إصلاح الأرض ، فبعد ذلك صار ديوانا مستقلا ملحوظا بعين العناية ، وبلغت ميزانيته ستمائة ألف جنيه حيث إنه الأساس الأعظم للثروة .

فحينئذ تمكنت من إجراء ما يلزم إجراؤه لتحصيل المنافع العمومية ، وقسمت أعمال الديوان ثلاثة أقسام ، قسم للتحريرات والمحاسبة ، وقسم لعمل التصميمات لما يلزم تجديده من الأعمال ، ويتبعه فرقة مهندسين لعمل الرسومات والموازين ، وقسم يختص بأعمال القاهرة ونحوها من مدن القطر ، وذلك غير الملحقات مثل : قلم الزراعة ، وقلم المصلح ، ومصلحة الانجرارية(٢) ، وقلم القضاء ، وقسمت مصلحة الهندسة خمسة أقسام لكل قسم مفتش ، وجعلت جميع أعمال الهندسة تحت إدارة وكيل الديوان ، وانتشر المهندسون فى جميع أنحاء القطر لمعاينة ما به من مبان وترع وقناطر وغيرها ، فحرروا الدفاتر بالموجود من ذلك وما يلزم تجديده أو رمه(٣) فى كل مديرية ، وأخذ الديوان فى إجراء الأعمال مقدما الأهم فالمهم . ولموافقة حال المالية والأهالى قسمت الأعمال على عدة سنين ، فحصل رم كثير من القناطر والبرابخ(٤) وتقويتها بوضع

---

(١) السخرة .   (٢) قد تكون مصلحة تعنى بالمسحوب من الأموال .
(٣) إصلاح ما فسد .   (٤) منافذ المياه ومجاريها .

الدبش أمامها فى الحفر التى يخلفها هدير الماء ، وأحضرت الأخشاب اللازمة لتقفيل القناطر عند الاقتضاء ، وجددت جملة من المبانى والقناطر النافعة ، منها بمديرية الشرقية قنطرة الزوامل على الترعة الإسماعلية ، وقنطرة الشرقاوية على النيل ، والبولاقية ، وقنطرة أشمون ، وقنطرة كفر الحمام ، وهويسات الإسماعيلية ، ورصيف السويس ، وبلغ مصرف ذلك نحو اثنين وثلاثين ألف جنيه غير برابخ وقناطر أنشىء بعضها على ذمة الحكومة ، وبعضها على ذمة المنتفعين .

وأجريت عمارات فى المحافظات والمديريات صرف عليها نحو خمسين ألف جنيه ، وصار الابتداء فى بناء سلخانة القاهرة ، واسبتالية(١) قصر العينى ، ومدرسة الطب ، وصارت المعاقدة(٢) مع مصلحة توزيع المياه بالقاهرة على إنشاء وابور يوصل الماء إلى مدينة حلوان وكانت مفتقرة إلى ذلك ، ونظمت الحمامات التى بها ، ورتبت لها المهمات اللازمة ، وجعل لها حكيم ومأمور ، وزيد فى القاهرة عدد فوانيس الغاز ، وصار تنظيم بعض شوارعها وفرشها بالحصباء(٣) ، وعملت عدة مجارير(٤) فى الشوارع المهمة لأخذ مياه الأمطار ، وأوصل الماء إلى طريق الجيزة والجزيرة للرش وسق الأشجار ، ونظم طريق شبرى وبنى بآخرها رصيف طوله نحو مائتين وخمسين متراً ، وجدد بالقاهرة ميادين ونافورات ، وأنشئت جنينة الأنتيكخانة(٥) ببولاق ، وبنى بالإسكندرية سراى البوستة ، وجعلت التصرف فى أمر الرى للمهندسين خاصة ، فجعلوا لفتح القناطر وسدها أوقاتاً بحسب الحاجة العمومية . ومنع ما كان يحصل من الفتح والسد على حسب الأغراض الخاصة .

---

(١) مستشفى . (٢) التعاقد . (٣) صغار الحجارة .
(٤) مجرى للمياه . (٥) دار الآثار .

ولم تزل الرغبة فى تركيب الوابورات على البحار والترع آخذة فى الزيادة، وكثرت الوابورات جداً حتى بلغ عدد المركب منها فى الجهات البحرية ألفين وواحداً وثمانين وابوراً قوتها أربعة وعشرون ألفاً وخمسمائة وواحد وثمانون حصاناً(١) بخارياً . منها الثابت على النيل مائة وخمسة وأربعون فى قوة أربعة آلاف وسبعمائة وواحد وثمانين حصاناً، وعلى الخلجان(٢) مائتان وواحد فى قوة ثلاثة آلاف وثمانمائة وتسعة وستين حصاناً . وغير الثابت على النيل مائتان وستة وعشرون وابوراً فى قوة ألفين ومائتين وسبعة ، وعلى الخلجان ألف وخمسمائة وابور وتسعة فى قوة ثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وثمانية وتسعين حصاناً . ولم تنته الرغبة إلى هذا الحد ، بل كثر طلب الرخص لتركيب وابورات مستجدة . وإلى غاية سنة ١٨٨٠ لم يكن ثمة قانون لتركيب تلك الوابورات ترتب على كثرتها حرمان كثير من الأهالى من الانتفاع بمياه تلك الترع ، سيما مع استحواز(٣) أصحاب النقود على ترع لوابوراتهم ، إما لسقى زرعهم ، أو لبيع الماء لزرع غيرهم ، وكثر التشكى من ذلك ، فجرى البحث فى هذه المسألة لرفع تلك المظالم . وعملت لائحة بخصوص الآلات الرافعة للماء امتنع بها الضرر، وهى المستعملة إلى الآن ، وبها انتظم أمر الرى ، وبلغ مقدار الماء بمديرية القليوبية فى أعظم التحاريق(٤) نحو ثمانمائة ألف متر مكعب فى اليوم والليلة ، منها من الترع خاصة بعد توسعة الباسوسية ستمائة ألف متر ، وفى مديرية الشرقية ثلاثة ملايين ونصف ، وفى الدقهلية

---

(١) مقياس فى الهندسة الميكانيكية يقاس به قوة الشد أو الجر .
(٢) مفردها خليج وهو امتداد من الماء متوغل فى اليابس .
(٣) الأخذ بدون وجه حق وطمعاً فيه .
(٤) ما يحدث للأراضى الزراعية عند الجفاف ونقص الماء من تشقق وجفاف .

نحو أربعة ملايين ، وفى الغربية والمنوفية نحو ثمانية ملايين ، كل ذلك بعد تقفيل قناطر بحر الغرب ، وتحويل الماء إلى بحر الشرق . وقد صار الاهتمام بتطهير الترع والخلجان بطريقة لا تمنع من سق المزروعات بأن منع سد أفواه الترع عند التطهير ، وجعل ابتداؤه من آخر كل ترعة بعد تقسيمها ، وحوّل كثير من ترع الوجه البحرى من نيلى إلى صيفى ، فتمكنت بلادها من الزراعة الصيفية . وعملت فى الأقاليم القبلية ترع وجسور لرى الجزائر وأعالى الحيضان ، وصار الاهتمام الزائد بأمر بلاد الفيوم ، وكان أكثرها قد تعطلت زراعته لأن إحداث الجفلك(١) هناك غير نظام الرى القديم ، وتبدل أكثر النصب القديمة المعدة لتقسيم الماء على البلاد ، فأحييت النصب القديمة ، وعدلت الترع والمساقى ، ووجه إليها مايلزم من ماء الإبراهيمية ، فزرع هناك نحو خمسة عشر ألف فدان صيفية ، وصارت أرضها رواتب(٢) ، وقل بها استعمال السواقى . ولما كانت الإبراهيمية قد قطعت ترع بلاد المنيا وحرمت أراضيها من الطمى الذى عليه مدار الخصب ، صار الاعتناء بهذه المسألة ، واستعملت الإبراهيمية فى ملء الحيضان وتكملتها مع ما يرد إليها من اليوسفى(٣) ، فحييت أرضها وأخصبت ، وزرع الأهالى بها نحو ثلاثة آلاف فدان من القصب الحلو بعد أن كان هذا الصنف والإبراهيمية مختصين بالدائرة السنية ، وزادت زراعة الذرة أضعاف ما كانت عليه ، وعملت فى المديريات قناطر وبرابخ كثيرة ما بين تجديد ورم . وبلغت أعمال الحفر فى تلك السنة ما بين تجديد وتطهير اثنين وثلاثين مليوناً ونصف مليون متر مكعب فى مائة وثلاثة وخمسين يوماً ، وخص الشخص فى اليوم

---

(١) الجفلك = دائرة أملاك ، عزبة .

(٢) أى يخصص لها أيام معينة للسقيا والرى .   (٣) بحر يوسف .

متر وتسعة أعشار متر ، وهو أكبر مما كان يعمل فى اليوم قبل ذلك بسبب أن الأعمال مشت على قانون منتظم ، مع أن الأنفار الذين وزعوا على البلاد كانوا أقل من الموزع عليها فى السابق بنحو عشرة آلاف نفس . وبلغ ما عمل فى السنة نصف ما قرر عمله فيهما مع كثرة ما قرر ، بخلاف ما كان يعمل قبل فإنه كان لا يتجاوز خمسى ما كان يقرر عمله فى السنة . وكان المؤمل زيادة انتظام العمل فى المستقبل . ومما أوجب تخفيف العمل لائحة العونة(١) التى ندب لها جملة من أعيان البلاد والحكام ، وهى المتبعة إلى الآن ، فمن مقتضاها جعل العونة على كل من له قدرة على العمل مع الترخيص فى التخلص منها بدفع البدل ، فتخلص من العمل ثمانية وخمسون ألف نفس ، وتحصل منها فى السنة نحو ستة وثلاثين ألف جنيه ، وكان كل سنة يزيد . وتحسنت حالة الرى ، وكل ما يتحصل يصرف فى أعمال لازمة ، وكان تطهير رياح البحيرة سابقاً يستعمل فيه نحو عشرين ألف نفس تجمع من سائر مديريات الوجه البحرى لقلة أنفار مديرية البحيرة . ومع ما فى ذلك من الظلم والإجحاف(٢) كان لا يتحصل منه إلا على ثمانمائة ألف متر مكعب من الماء فى اليوم والليلة ، وكان المتحصل من وابورات العطف مثل ذلك بنفقات باهظة ، والمتحصل من الجهتين كان غير كاف لزرع نصف ما يلزم زرعه بهذه المديرية الواسعة ، مع أن المنصرف على ذلك سنوياً نحو اثنين وعشرين ألف جنيه، فلما رأينا ما عليه زراعة المديرية من

---

(١) هو قانون عرف باسم (العونة) بمعنى السخرة ، وقد استطاع على مبارك أن يستصدر قانون بتعديل هذه العونة الإجبارية ، فجعل العمل فيها قاصراً على القادرين وحدهم ، ومن ليس قادراً عليه أن يدفع شيئاً من المال ، فيعفى من العمل ، أنظر كتاب «على مبارك حياته ودعوته» ، ص٦٨ .

(٢) شدة الإضرار بهم .

الانحطاط والتأخر ، قدمنا لمجلس النظار مشروعا عن تركيب وابورات بفم الخطاطبة ، وتحسين وابورات المحمودية لتخليص المديرية من هذا الضرر ، وإنه وجد لهذا المشروع من يجريه وهو الموسيو داستون المهندس وشركاؤه . فبعد المذاكرة(١) صار قبول هذا المشروع ، فصار التعاقد مع المهندس المذكور وشركائه على تجديد وابورات على فم ترعة الخطاطبة يتحصل منها يومياً مليون ونصف مليون متر مكعب من المياه ، وأن يزاد على وابورات العطف ما يلزم زيادته وما يلزم استعداده من القديم للحصول على إيراد مليون ونصف آخر ، وعملت الشروط اللازمة ، ومن ضمنها إتمام العمل في سنة واحدة ، وأن لا يزيد المنصرف في السنة عن أربعة وعشرين ألفاً وسبعمائة وسبعة وثمانين جنيهاً ، وقدر في العطف ثمن المليون بأربعة وعشرين جنيهاً ، وفي ترعة الخطاطبة خمسة وعشرون ونصفاً . فقامت تلك الشركة بذلك وبطلت(٢) السخرة وقل الاحتياج إلى التطهير ، وكانت الحكومة سابقاً تكلف أورطة عسكرية بإحضار الدبش اللازم للمحافظة على جسور النيل ، فرأى ديوان الأشغال كثرة ما يصرف على ذلك فأبطل تلك الطريق ، وجعل توريد الدبش الكافي في عهدة جماعة بشروط عقدها معهم ، وعمل للتسليم والتسلم استمارة ، وعين لهذه المصلحة مأمورين من المهندسين ، فسارت سيراً حسناً ، وبلغ مقدار ما أحضر إلى الجهات في سنة ٨٠ مليوناً وأربعمائة قنطار بمبلغ ثلاثمائة وخمسة عشر ألف قرش باعتبار ثمن القنطار تسعة أنصاف فضه(٣) ، مع أن الذي استخرجته الأورطة وغيرها في سنة ٧٩ كان مائة واثنين وخمسين ألفاً وأربعمائة قنطار

---

(١) الدراسة والمفاوضة . (٢) ألغيت .

(٣) أي الفضة: نقد مصري قليل الثمن اختلف سعره باختلاف السنوات . أنظر النقود العربية (الأب أنستاس الكرملي) ص ١٦٧ . ١٩٣٩ ووفقاً لسعر القطن المذكور فإن القرش في ذلك العهد كان يساوي حوالي ١٥ فضة .

بمبلغ ثلاثمائة وأربعة وخمسين ألفاً وثمانمائة وخمسة عشر قرشاً . فانظر إلى الفرق البين، مع التسهيل على الناس ، فضلا عن الحصول على دبش عظيم جيد ، وهكذا كانت جميع الأعمال قائمة على قدم السداد .

وكانت هيئة النظارة سائرة فى الطريق الجادة ناشرة ألوية العدل والتسوية بين القوىّ والضعيف والرفيع والوضيع . فاستوجب ذلك إثارة الحقد فى صدور أرباب الأغراض . فتقوّلوا(١) على هذه الهيئة ، وطعنوا(٢) فيها ، واختلط كثير منهم بضباط العسكرية ، فأوغروا(٣) صدورهم ، وألقوا فى آذانهم أنهم الأحق بتعديل القوانين والتصرف فى الحكومة ، حيث إنهم أهل الوطن وأصحاب القوة ، وحسنوا لهم ما صنع بعضهم من الثورة السابقة التى لم يعاقبوا عليها ، فتعصبوا وتمكن منهم الغرور ، وكان رئيسهم أحمد عرابى(٤) أحد أمراء الآلايات وقتئذ ، فاستمال(٥) سائرهم وعاقدهم(٦) على مضادة الحكومة ، وتقدم من رؤسائهم لمجلس النظار عريضة يطلبون فيها تغيير ناظر الجهادية عثمان باشا رفقى وتشكيل مجلس نواب وغير ذلك مما يخرج عن حدود وظائفهم . فانعقد لذلك مجلس النظار تحت رئاسة المرحوم الخديو توفيق ، وانحط(٧) الرأى على عقد مجلس من الأهليين وبعض أمراء العسكرية للنظر فى أمرهم والحكم فيهم بما تقتضيه قوانين الجهادية ، وتعهد ناظر الجهادية بأن لا ينجم عن ذلك خطر ولا ضرر . فانعقد ذلك المجلس بقصر النيل وجُلبوا إليه لمحاكمتهم ، فقام جمع من الضباط والعساكر وهجموا على قصر النيل ،

---

(١) اختلقوا كلاماً كذباً . (٢) عابوا بألسنتهم .
(٣) ملأوا القلب بالحقد والضغينة .
(٤) ولد سنة ١٨٤١ م وتوفى سنة ١٩١١ م .
(٥) استعطف وأمال . (٦) عاهدهم . (٧) استقر .

وأهانوا من بالمجلس، وأخذوا العرابي ومن معه بالقوة على حسب عهد كان بينهم ، فكان ذلك أول التظاهر بالعصيان والخروج عن طاعة الحكومة ، وشاعت هذه النازلة(١) حتى وصل خبرها إلى البلاد الأجنبية . فجمع الخديو المرحوم توفيق النظار وأعيان الأمراء وتفاوضوا في إطفاء هذه الفتنة، فتقرر تغيير ناظر الجهادية وإجابة العسكر إلى مطلوبهم . والإغضاء عما حصل منهم لما تبين من عدم وجود قوة تحت يد الحكومة ترد جماحهم، فلم ينقطع الشر بذلك ، بل تمادوا على العصيان ، وحملهم الخوف على أنفسهم على شدة النفور وعدم قبول النصيحة ، وطمعوا في أن يكونوا أصحاب الحل والعقد في الحكومة ، وتأكد التحالف بينهم حتى بلغ بهم الأمر إلى أن هجموا على سراي عابدين ووجهوا إليها المدافع ، وطلبوا سقوط هيئة النظارة وترتيب مجلس النواب وزيادة عدد الجند إلى ثمانية عشر ألف عسكري ، فحضر القناصل وأوصلوا الأمر إلى دولهم بواسطة التلغراف . وبعد المخابرات أجيب العسكر إلى مطلوبهم ، وغيرت هيئة النظارة ، وصدر الأمر الخديوي إلى المرحوم شريف باشا بتشكيل هيئة تحت رئاسته ، فشكلها ، وعقد مجلس النواب ، فشرع رجال المجلس في تقرير لائحته الأساسية . وبعد قليل طلبوا أن يكون لهم الحق في نظر ميزانية الحكومة بشرط عدم الخروج عن المعاهدات الدولية وقانون التصفية ، فلم يجبهم المرحوم شريف باشا إلى ذلك ، فأصروا على الطلب ، وظاهرهم العسكر ، فاستعفى(٢) المرحوم شريف باشا وتغيرت هيئة النظارة ، وتشكلت هيئة جديدة تحت رئاسة محمود باشا البارودي(٣) ، وجعل من رجالها أحمد عرابي على الجهادية والبحرية ، فلم تخمد بذلك نيران الفتن ، بل اشتعلت

---

(١) المصيبة الشديدة. (٢) طلب منه العفو عن تكليفه بالوزارة (استقال).

(٣) سياسي وشاعر ولد سنة ١٨٤٠ م توفي ١٩٠٤ م .

وانضم إلى الطائفة العرابية الخوارج كثير من أهل البلاد وأعيانهم ما بين راغب وراهب .

وفى أثناء ذلك أتى إلى مينا الإسكندرية مراكب حربية إنجليزية وفرنسية وغيرها لتقرير الأمن وإطفاء الفتنة . وحضر إلى مصر درويش باشا مندوبا من طرف الدولة العلية لتسكين الفتنة، فلم تحصل النتيجة ، وقام الخديوى إلى الإسكندرية ولحقه درويش باشا . وتدوولت المخاطبات بين الدول ، وبينها وبين الباب العالى ، وتقرر عقد لجنة بالاستانة العلية للنظر فى هذه الحادثة .

وفى أثناء ذلك أطلقت على الإسكندرية المدافع من المراكب الإنجليزية ، وقاومت العساكر المصرية سويعات ثم انهزموا ، وخرجوا من الإسكندرية بعد إشعالهم النار فيها ، وحثوا أهلها على الخروج فخرجوا هائمين(١) على وجوههم كيوم الحشر ، وتفرقوا فى البلاد ، وحصل لهم من السلب والنهب ، وهتك الحريم ما يكل(٢) القلم عن حصره ، ودخل الإنجليز الثغر(٣) ، وتحصن العرابى ومن معه بقلاع عملوها من تراب بكفر الدوار ، وسدوا المحمودية ليمنعوا وصول الماء إلى الإسكندرية ، وكثر الممدون لهم بالأنفس والأموال ما بين راغب وراهب ، وعم(٤) الخوف كل من لم يتشيع(٥) لهم ، وامتلأت الطوبخانة(٦) ممن تظاهر بمخالفتهم .

وفى خلال تلك الأحوال كان قد تشكل بالقاهرة مجلس عرفى بأمر العرابى للنظر فى المصالح ، وكثيراً ما عقدوا مجالس للنظر فى مسائل

---

(١) الهائم المتحير . (٢) يعجز .
(٣) المكان الذى يخاف منه هجوم العدو (الاسكندرية) .
(٤) شمل . (٥) ينضم إليهم .
(٦) دار المدفعية .

تعرض من طرف العرابي وحزبه ، وفى آخر مرة عقد مجلس بديوان الداخلية بالقاهرة ندب إليه كثير من الأمراء والعلماء والروحانيين وأعيان البلد ، وكنت قد حضرت من بلدى لقضاء بعض المصالح ، فكنت ممن ندب إليه ، فعينت سفيراً إلى الإسكندرية مع جماعة من الوطنيين ، فلما وصلنا إلى الإسكندرية تكلمت فى عمل طريقة لما يوجب خمود نيران هذه الفتنة ، فأجاب الجناب الخديو ، وصارت المكالمة فى هذا الشأن مع رؤساء الإنجليز ، لكن لم ينجح ذلك لمزيد نفرة العسكرية . ولما خاف العرابي أن يتحول الإنجليز إلى جهة برزخ السويس ، تحوّل بأكثر عسكره إلى التل الكبير بالشرقية ، فتحصنوا هناك ، ووقع بينهم وبين الإنجليز مناوشات(١) انتهت بانهزام عرابي وقومه ، وسار الإنجليز إلى القاهرة ، وأسلم العرابي نفسه ، وقبض على من كان معه ومن اتهم بالتشيع له ، وسجن الجميع فى أضيق السجون . وبعد أن حضر الخديو إلى القاهرة وهدأت الأمور عينت لجنة للتحقيق وأخرى للحكم على كل بقدر جنايته ، وتم الأمر بعقوبة البعض والعفو عن البعض وتبرئة البعض . ولله عاقبة الأمور .

وإثر انهزام العرابيين تشكلت نظارة تحت رئاسة المرحوم شريف باشا فى سنة ١٨٨٣ ميلادية ، فكنت من أعضائها على ديوان الأشغال العمومية ، فوجهت النظر نحو إتمام ما تقرر فى المدة السابقة ، وفى هذا العام أعنى سنة ١٨٨٣ ميلادية نلت من لدن الحضرة الخديوية التوفيقية رتبة (روملى بيكلر بيك) ، وفيها(٢) أيضاً كانت وابورات الخطاطبة غير كافية لاحتياجات أراضى المديرية ، فحصل تنقيح الشروط التى كانت قد عملت مع مسيو داستون على تجديد وابورات بفم ترعة الخطاطبة ، ولزيادة مقدار الماء إلى نحو خمسة ملايين متر مكعب بعد أن كان الوارد

---

(١) المنازلة بالسلاح . (٢) أى سنة ١٨٨٣ م .

ثلاثة ملايين . واتخذ الديوان طريق المقاولة فى المبانى على الإطلاق ، ورتب لمراقبة ذلك من يلزم من المهندسين لئلا تخرج الأعمال عما فى التعهدات ، وجعل لذلك استمارة يجرى العمل عليها . ثم أخذ فى نقل جسور الترعة الأصلية كى لا تنهال الأتربة فيها ، وليتمكن من تكرار العمل ، ولكثرة العمل قسم على سنين ، وجعل بعضه يعمل بالمقاولات على وجه التجربة ، والبعض يعمل بأنفار العونة(١) . ثم وجهت الهمة نحو مرمة عمارات جميع المديريات وتجديد ماهو لازم ، ورتبت كراكات بالمحمودية لاستدامة قطاعها. وصار مد الترعة الإبراهيمية لسق زرع مديرية بنى سويف، وترتيب كراكات بالإبراهيمية ، وبنيت الورشة لترميم الآلات وتجديد مايلزم ، ورتب لها مايلزم من الأدوات والصناع ، وصرف على تطهيرها فى هذه السنة نحو سبعة وعشرين ألف جنيه ، وبلغ إيرادها فى أشد التحاريق نحواً من أربعة ملايين متر مكعب من الماء . ومثل ذلك صار فى ترعة الإسماعيلية وصرف عليها نحو أربعة وعشرين ألف جنيه ، وكان بحر مويس يقل به الماء فى زمن الصيف لكثرة الرمال بفمه ، وحدوث الجزائر به وأمامه ، ولا ينفعه التطهير الجارى به كل سنة ، فرتبت به كراكة بأدواتها وعمالها فزالت منه الرمال وكثر الماء فيه وفى فروعه ، واستقر الحال على استعمال الكراكات فى الأبحر الكبيرة كالشرقاوية والمنصورية ورياح الوسط ورياح المنوفية والغربية ، وأن يكون ذلك على التدريج ، وبذلك تخفف التطهيرات الصيفية عن كاهل(٢) الأهالى ، وما يتحصل من البدلية ربما يوازى ما يصرف على الكراكات ولوازمها مع كثرة فوائد الكراكات جداً عن عمل الأنفار .

وأجريت فى تلك السنة أعمال متنوعة فيما يخص التطهيرات والمحافظة

---

(١) أنفار السخرة. (٢) الكاهل: ما بين كتف الإنسان، وعليه تحمل الأثقال .

على كوبرى قصر النيل وسد أبى قير ، وأنشىء بالشرقية مدرسة الزقازيق وديوان المديرية وملحقاته . وفى القاهرة أجرى تبليط الشوارع ومرمة أخرى وإنشاء مجارير(١) ، ومرمات مبان وترتيب فوانيس غاز على حسب الحاجة ، واشترى هراس(٢) بخارى وكناسات تجرها البهائم ، وتنظيم جنات وميادين. وبلغ مصرف أعمال القاهرة فى تلك السنة نحو خمسة وسبعين ألف جنيه . وكذا جرت عمائر وأعمال متنوعة بمدينة الإسكندرية وفى الأقاليم البحرية والقبليه ، فى مديرية الدقهلية قنطرة ترعة الساحل ، وكوبرى معدنى على ترعة أم سلمة. وصار الشروع فى عمل ترعة الإيراد فى البحر الصغير مصرفاً لإحياء أراضى البحر الصغير ، وترعة مستجدة بين أطيان الدراكسة وميت سويد(٣) وحوشة ببحيرة الطبلية ، وفى الغربية صار الشروع فى عمل قنطرة مدينة المحلة وقنطرة بسيون ، وحولت ترعة سليم الآخذة من الخضراوية من نيلية إلى صيفية ، وفى المنوفية كملت قناطر النعناعية ، وحولت ترعة الحمراء من نيلية إلى صيفية ، ونقلت جسور ترعة الساحل . وفى البحيرة عملت حوشة جديدة على جزيرة الطيرية وتحويلة لجسر النيل بناحية النجيلة(٤) ، وأخرى وقاية من بتبييت ناحية الأخماس . وفى القليوبية نقلت جسور ترعة كوم بتين وعملت مساطيح لترعتى القرطامية وأبى المنجى . وفى مديرية بنى سويف بنيت القناطر السبع فى جسر قشيشة وسحارات(٥) تحت بعض الترع لنفوذ المياه الحمراء

---

(١) جمع مجرى مجرى للمياه . (٢) والصواب المهراس وهو من آلات الهرس. (٣) من قرى مركز دكرنس فى محافظة الدقهلية (القاموس الجغرافى ٢٣٧/١) . (٤) من قرى مركز كوم حمادة بمحافظة البحيرة (السابق ٣٣٣/٢) . (٥) السحارة : طريقة لحجز المياه وتصريفها بمقدار معين بواسطة حبل أو سلك يشد لنزول المياه .

إلى الحيضان ، وقناطر أخرى فى الجسور للصرف ، وعملت قنطرة بالحوض السلطانى ، وفى الفيوم قناطر بحر الغرق ، وسد فم بحر النزلة(١) القديمة ، وعملت به تحويلة لإيصاله بالبحر الأصلى . وفى مديرية المنية(٢) عملت قناطر بالحيضان كحوض الطهنشاوى وحوض الجرنوس(٣) . وكذا عمل فى مديريتى جرجا وقنا .

وإلى ذاك الوقت لم يكن بالمديريات محلات كافية لدواوين الإدارة والقضاء والضبط ونحو ذلك ، وكان الموجود منها مبنياً بالطوب النىء أو الدبش على غير نظام . وكانت السجون حجراً مظلمة لا يدخلها النور إلا قليلا ، وكان أصحاب الجرائم على اختلاف جرائمهم يخزنون فيها كالأمتعة ، يختنق داخلها بمجرد استنشاق هوائها . ففطنت الحكومة الخديوية لذلك وصدر الأمر بإنشائها فعمل ديوان الأشغال التصميمات اللازمة ، وشرع فى بنائها على التدريج ، فبدأ بديوانى مديرية الشرقية والمنوفية . وكذا لم يكن بالمديريات مستشفيات داعية إلى الصحة ، بل كان بعضها محل مصانع ونحوها وأكثرها متهدم ، والسليم منها كمربط(٤) البهائم ، فعملت تصميمات لتلك الأعمال على حسب أهمية كل مديرية بالكبر أو الصغر ، وتدرجت الأعمال على السنين ، فعمل مستشفيا المنصورة والغربيه فى تلك السنة . وكذا الذبح كان فى الفضاء وجارياً على غير قانون ومنافع الحكومة منه قليلة ، فبنى مذبح المنصورة والغربية ، وجعلت تلك المبانى مثالا لما يبنى فى سائر المديريات ، وبنيت جملة مخازن للمصلح وقراقولات(٥) للعساكر وغير ذلك مما لا يسع المقام شرحه .

---

(١) بمركز ابشواى محافظة الفيوم (السابق ٣/٧٢) .
(٢) يقصد المنيا . (٣) الجرنوس : قرية من قرى مركز بنى مزار محافظة المنيا (السابق ٣/٢١٣) . (٤) موضع ربط الدواب .
(٥) جمع قراقول وهو المخفر (قسم البوليس) .

ولنذكر هنا بعض ملخص التقرير الذي عمل إذ ذاك بديوان الأشغال، وقدم لمجلس النظارة بخصوص الري ، واستيفاء أعمال سقي الزراعة الصيفية في زمن التحاريق ، وإزالة صعوبة أعمال التطهير عن كاهل الأهالي واتساع نطاق الزراعة والمحصولات ، فمن أهم ذلك إتمام ما يلزم لعملية ترعتي الرمادي والإبراهيمية وترعة أخرى مهمة في الأقاليم القبلية لإزالة غوائل(١) الشراقي(٢) الذي يتوقع حصوله في بعض السنين، فإن ما يصرف في أعمال تلك الترع أو في ترتيب وابورات لتكميل ري الحيضان المرتفعة ولو كان كثيراً في نفسه لكنه قليل جداً في جنب ما تخسره الأهالي والحكومة عند حصول الشراقي ، فقد كانت خسارة الحكومة وحدها سنة ١٨٧٧ ميلادية عندما كان النيل أقل من ١٧ ذراعاً(٣) وهبط بسرعة أكثر من مليون جنيه ، ولا بد أن الأهالي كانوا بمثل ذلك أو أكثر فضلا عما قاسوه من الضنك(٤) والموت . وكثيراً ما يكون النيل أقل من اللازم فتتكرر الخسائر ، فمن الضروري تدارك ذلك بإجراء تلك الأعمال للأمن على الأموال والأنفس ، ومن ذلك بناء القناطر اللازمة في جسور الحيضان لتقل كمية الرديف السنوي ، وتقل أنفار العونة . وفي الوجه البحري بدلا عن المعالجة في القناطر الخيرية وكثرة الصرف عليها مع طول المدة بترتيب وابورات على شاطىء النيل كافية لسقي المزروعات . وقد جرى البحث عما يلزم لكل مديرية من الوجه البحري ، فتبين أنه يكفي جميعها في اليوم والليلة خمسة وعشرون مليون متر مكعب من الماء بما في ذلك مليون ونصف لمديرية الجيزة ، وباعتبار أن الفدان يلزم له عشرون متراً مكعباً

---

(١) الدواهي . (٢) عدم وصول مياه إلى الأرض .
(٣) الذراع في المقاييس طوله ما بين الخمسين والسبعين سنتيمتر .
(٤) الضيق .

كل يوم ، وأن وارد النيل فى أشد التحاريق هو ثمانية وثلاثون مليوناً كل يوم ؛ يكون الباقى فى مجراه نحو ثلاثة عشر مليوناً، ومبلغ الخمسة والعشرين مليوناً المذكور موزع على مديريات بحرى بحسب زمامها هكذا : لمديريتى القليوبية والشرقية خمسه ملايين منها ثلاثة ملايين وثلث من الوابورات التى وضع على الخليج المصرى والشرقاوية والباسوسية ، والباقى من النيل بواسطة الإسماعيلية وبحر مويس ، ولمديرية الدقهلية أربعة ملايين : منها ثلاثة من الوابورات التى توضع على ترعة الساحل والبحر الصغير ، والباقى من النيل بواسطة ترعتى أم سلمه والمنصورية بعد تطهيرهما بالكراكات حسب المطلوب . وللمنوفية والغربية عشرة ملايين منها : سبعة بالآلات البخارية وهى أربعة طقومة(١) : واحد برأس روضة البحرين وآخر خلف القرينين ، وثالث على ترعتى الساحل والخضراوية ، والرابع بقرب فم البحر الصعيدى ، والثلاثة الباقية من النيل بواسطة رياح الوسط . ولمديرية البحيرة أربعة ملايين ونصف من الوابورات الراكبة على المحمودية وترعة الخطاطبة خلاف ما يؤخذ من الرياح . ولمديرية الجيزة مليون ونصف بطقمى آلات أحدهما يوضع على الشاطىء الأيسر للنيل لرى أراضى شرق اطفيح(٢) ، والآخر فى رأس المديرية القبلى قرب مصرف جرزة، وتقدم لديوان الأشغال من بعض الشركات المعتبرة طالب يتعهد إجراء تلك الأعمال ، فبفرض معاملتها كنص شروط الخطاطبة ، وجعل مدّة الالتزام خمساً وثلاثين سنة عملت حسبة فى الديوان فظهر أن ما يلزم دفعه كل سنة لتلك الشركة مائتان وسبعة وثمانون ألف جنيه مصرى موزعة على المديريات هكذا : على مديرية الجيزة تسعة وثلاثون ألفاً وثلثمائة جنيه ، وعلى القليوبية والشرقية تسعة وخمسون ألفاً ومائة جنيه ،

---

(١) أطقم جمع طقم وهو المجموعة المتكاملة فى الأدوات تستخدم فى أغراض خاصة . (٢) مدينة من محافظة الجيزة .

وعلى الدقهلية ثمانية وثلاثون ألفاً وستمائة وخمسون جنيهاً ، وعلى المنوفية والغربية مائة ألف وألف وثمانية جنيهات ، وعلى البحيرة تسعة وأربعون ألفاً . وباعتبار أن المزدرع(١) صيفاً مليون فدان فقط يخص الفدان سبعة وعشرون قرشاً صاغاً تقريباً بضرفه تستوفى الزراعة حقها من المياه بسهولة . وإذا اعتبر التوزيع بالنسبة لعموم الزمام(٢) يخص الفدان نحو عشرة قروش ، ذلك قليل جداً فى جنب ما تحصل عليه البلاد من الفوائد التى منها أن رفع المياه بالآلات إلى مستوى ثابت يضمن ثبات مقدار الكمية اللازمة للزراعة مهما بلغت درجة انحطاط النيل وذلك من أهم الأمور . ومنها تنقيص التطهير النسبى بمقدار مهم جداً ، ومنها إنه بواسطة الآلات تنال الأراضى المرتفعة والمنحطة من الماء بقدر اللازم فقط ، ومنها إنه فضلا عن دوام استيفاء الكميات المقدرة من الماء ، فمن الممكن زيادة ارتفاع الماء فى الترع أو تنقيصه على حسب الحاجة، فيتوفر على الناس ما ينفقونه فى سبيل رفع الماء بالسواقى ونحوها ، ومنها إنه بواسطة رفع سطح الماء بحسب الطلب يمكن تحويل جميع الترع النيلية الداخلية إلى صيفية بدون إجراء حفر فيها بحيث يتيسر استخدامها للزراعة الصيفية ، فيتمتع الأهالى بالزراعة الصيفية بعد حرمانهم منها . وبالجملة فبجلب المياه إلى الترع بواسطة الآلات يصير مقدار تصرفها كافياً كافلا لاحتياجات الأراضى إذ لا توجد أرض إلا وريها مرتب على ترع نيلية أو صيفية ، وقد تكلمنا فى كتابنا « نخبة الفكر » على ما يتعلق بالقناطر الخيرية بأبسط عبارة، فليراجع .

ولم تزل هيئة هذه النظارة قائمة على قدم السداد(٣) جادة فيما فيه

---

(١) بمعنى المزروع . (٢) هنا بمعنى الأراضى .

(٣) الجرأة والشجاعة والصواب فى اتخاذ القرارات .

عمارية(١) البلاد وراحة العباد ، إلى أن حدثت أمور أوجبت استعفاء(٢) النظارة ، وتشكلت نظارة أخرى تحت رئاسة دولتلو نوبار باشا . وذلك فى أواخر سنة ١٨٨٣ ميلادية ، واستمرت إلى منتصف شهر يوليه سنة ١٨٨٨ ميلادية (١٣٠٥ عربية) ، ثم استعفى وسقطت النظارة . وبتاريخه صدر الأمر العالى الخديوى إلى الجناب المعظم ذى الدولة مصطفى باشا رياض بتشكيل نظارة تحت رئاسته مقلداً(٣) حرسه الله مع ذلك نظارة الداخلية والمالية . فجعلت من رجال هذه النظارة مقلداً أيضاً نظارة ديوان المعارف . وها أنا الآن قائم بهذا الأمر على حسب المصالح بقدر الإمكان والله المستعان .

وكنت فى بلدتى مشغولا بزراعة بعض أرض لى هناك كان قد مضى علىّ نحو من ثلاثين سنة لم أتوجه إليها بسبب كثرة أشغالى بمصالح الحكومة ، ومن طول المدة كانت آلت إلى التلف وصار أغلبها سباخاً(٤) ، فلما طلبت لهذه الخدمة تركتها ، وأخذت فى تأدية ما فرض علىّ قياماً بحق وطنى ، أسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لما فيه نفع العباد ، وأن يختم لنا وللمسلمين بالخير إنه سميع مجيب الدعوات وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

[هذا كلامه رحمه الله عن نفسه] .

---

(١) تعمير　　　　(٢) إستقالة .
(٣) متولياً .　　　　(٤) مالم يحرث ولم يعمر .

تذييل رقم ١ : تتمة سيرة على باشا مبارك(*) :

قام مصطفى رياض باشا بتشكيل وزارته الثانية فى ٩ يونيو ١٨٨٨ م وتولى فيها على مبارك باشا نظارة المعارف العمومية ، وفى أثناء نظارته بذل كل طاقاته ، فأنشأ العديد من المدارس حتى عمّت معظم مدن القطر(١) ووضعت الكتاتيب تحت إشراف نظارة المعارف ، ثم وضع لائحة عامة للتعليم فيها ، كما أنشأ فى مدرسة دار العلوم فرقة خاصة يتخرج فيها من يتولى التدريس فى هذه الكتاتيب .

وظل يمارس مسئوليات النظارة (الوزارة) حتى استقالت الوزارة فى ١٢ مايو ١٨٩١ م (٤ شوال ١٣٠٨ هـ) .

وبعد خروجه من الوزارة اتجه إلى التأليف ، واستكمال بعض كتبه ، وترتيب مقيداته ، وقد شغلته سلفاً مقتضيات الوظيفة عن استكمال هذه المؤلفات ، ومنها كتابه عن المقاييس والموازين والمكاييل .

ثم أتم تأليف كتاب « آثار الإسلام فى المدنية والعمران » ، وهو آخر مؤلفاته ، وتوفى قبل طباعته ، شارحا فيه كل ما أدخله الإسلام من عمران فى الممالك المختلفة ، وما ترتب على ذلك من المدنية والنظام ، وما تضمنه من الحكم والعلوم العالية .

ومن مؤلفاته الأخرى(٢) :

١ — تقريب الهندسة لاستعمال العسكرية المصرية طبع سنة ١٢٨٠ هـ (١٨٦٣ م) .

٢ — حقائق الأخبار فى أوصاف البحار ، القاهرة ، سنه ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) .

٣ — خواص الأعداد ، القاهرة ، ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م) .

(*) بقلم المعلق : عبد الرحيم يوسف الجمل .

(١) انظر تذييل رقم ٢ . (٢) مرتبة حسب تاريخ طباعتها .

٤ — تنوير الأفهام فى تغذى الأجسام ، القاهرة ، ١٢٨٩هـ (١٨٧٢م) .

٥ — تذكرة المهندسين ، وتبصرة الراغبين ، القاهرة ، سنة ١٢٩٠هـ (١٨٧٣ م) .

٦ — طريق الهجاء والتمرين على القراءة فى اللغة العربية (جزءان) القاهرة ، ١٢٩٧ هـ (١٨٨٠ م) .

٧ — نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر ، القاهرة ، ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م) .

٨ — علم الدين ، القاهرة ، ١٢٩٩هـ (١٨٨٢م) .

٩ — الخطط التوفيقية ، القاهرة ، ١٣٠٦ هـ (١٨٨٩ م) .

١٠ — الميزان فى الأقيسة والأوزان ، القاهرة ، ١٣٠٩هـ (١٨٩٢م) .

١١ — خلاصة تاريخ العرب (معرب) ، ١٣٠٩ هـ (١٨٩٢ م) .

١٢ — جغرافية مصر ، ١٣١١ هـ (١٨٩٤ م) .

وفاته :

توفى على باشا مبارك بعد أن أصابه مرض فى المثانة ، استلزم معه العلاج فى القاهرة ، إلى أن مات ببيته فى الحلمية ، ليلة الثلاثاء ٥ جمادى الأولى سنة ١٣١١ هـ (١٤ نوفمبر ١٨٩٣ م) .

وشيّع جنازته جمع غفير ، يتقدمهم الأمراء وعلية القوم ، كما أغلقت المدارس فى جميع القطر المصرى ، وتصدر خبر وفاته صفحات الجرائد المصرية(١) .

وقام طلبة دار العلوم برثائه شعراً ونثراً ، ثم اكتتبوا فيما بينهم لإقامة تمثال له وتجميع ما قيل فيه من قصائد وكلمات لطبعها وتوزيعها .

---

(١) انظر على سبيل المثال : جريدة المقطم ، العدد ١٤٢٠ بتاريخ ١٥ نوفمبر ١٨٩٣ م .

(تذييل رقم ٢) : أعمال على مبارك باشا فى مجال التعليم :

ـ تولى فى الفترة من ٢١ سبتمبر ١٨٦٨ حتى ٢١ سبتمبر ١٨٧٠ م منصب مدير المدارس ، وكان عدد المدارس عند توليته ست مدارس بها ١٩٥٤ تلميذاً ، وعند إعفائه أصبحت إحدى عشر مدرسة بها ١٩٧٤ تلميذاً .

ـ ثم تولى فى الفترة من ١٩ مايو ١٨٧١م حتى ١٦ أغسطس ١٨٧٢م المنصب السابق ، وفى الفترة من ١٧ أغسطس ١٨٧٢ م حتى ١٥ أغسطس ١٨٧٣م ، أصبح مستشار المدارس ، ثم أصبح عدد المدارس عند إعفائه ٢٢ مدرسة يدرس بها ٣٣٥٨ تلميذاً .

ـ وفى ٢٨ أغسطس ١٨٧٨ م تولى نظارة المعارف ، وكان عدد المدارس ٢٤ مدرسة بها ٣١٢٨ تلميذاً ، وعند إعفائه فى ٨ أبريل ١٨٧٩م ، ارتفع عدد المدارس إلى ٢٩ مدرسة بها ٤٣٤٤ تلميذاً .

ـ وفى ١١ يونيو ١٨٨٨م تولى نظارة المعارف مرة أخرى ، وعدد المدارس كما هو ، وإن زاد عدد التلاميذ إلى ٤٩٤٣ تلميذاً ، وعند إعفائه فى ١٣ مايو ١٨٩١ م أصبح عدد المدارس ٤٦ مدرسة وعدد التلاميذ ٧١٩٩ تلميذاً .

ويتضح من هذه العناية الشديدة فى التوسع فى مجال التعليم .

وفيما يلى موجز لأهم المدارس التى افتتحها على مبارك إبان تقلده للمعارف العمومية :

١٨٦٨ أنشأ مدرسة المحاسبة ، ومدرسة الإدارة ، ومدرسة العمليات ، ومدرسة بنها ، ومدرسة أسيوط .

١٨٧٢ مدرسة القربية ، ومدرسة القزلار ببولاق ، ومدرسة النحاسين .

١٨٧٣ مدرسة دار العلوم ، ومدرسة البنات بالسيوفية ، ومدرسة الجمالية ، ومدرسة بنى سويف ، ومدرسة المنيا ، ومكتب السيدة زينب ، ومدرسة العقادين ، ومدرسة شيخون .

١٨٧٨ قلم الترجمة .

١٨٧٩ مدرسة عابدين . ومدرسة مصر القديمة . ومدرسة الحسينية ، ومدرسة الفشن .

١٨٨٨ مدرسة دمياط ، ومدرسة الفيوم ، ومدرسة السويس .

١٨٨٩ مدرسة سوهاج .

١٨٩٠ مدرسة أسوان ، ومدرسة بور سعيد .

١٨٩١ مدرسة الزراعة ، ومدرسة قنا ، ومدرسة بلبيس ، ومدرسة الإبراهيمية .

كما اعتنى بتعليم التلاميذ اللغة العربية والخط وأصول الحساب ، ومبادىء الجغرافيا والتاريخ ، ولغة إفرنجية ، ونبذة عن فن الزراعة . هذا ما تضمنته اللائحة الصادرة فى شهر رجب ١٢٨٤ هـ (نوفمبر ١٨٦٧م) . واشتهرت بلائحة رجب(١) ، كما تضمنت أن يصرف لكل تلميذ :

عدد	عدد
٣ قميص	٢ طربوش
٣ لباس	١ زر حرير
٣ صديرى غزلية أو غيرها .	٣ طقية
٣ جلابية ملونة شكل واحد . مسدودة الصدر بياقة .	١ كبود للشتاء على سنتين
٤ شراب أبيض .	٢ مركوب جزمة بلدى
٣ دكك .	١ سبتة حزام من جلد بأبزيم أو كمر

---

(١) انظر . على مبارك أبو التعليم ، د . حسين فوزى النجار ، ص ٩٧ و ٩٨ .

(تذييل رقم ٣)(١) :

القاهرة فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر

أولا : السكان :

بلغ عدد سكان القاهرة فى إحصاء ٣ مايو ١٨٨٢ (٣٧٤٨٣٨ نسمة) منهم ٢٢٤٢٢ أجنبياً (أكثرهم من اليونانيين والفرنسيين) .

وبالمقارنة بعدد سكان القاهرة فى هذا الإحصاء وإحصاء سنه ١٧٩٨م سوف نلاحظ الزياده المستمرة بنسب متفاوته .

ففى إحصاء سنة ١٧٩٨ بلغ عدد السكان فى القاهرة ٢٦٠٠٠٠ نسمة .

وفى إحصاء سنة ١٨٧٢ م بلغ عدد السكان ٣٤٩٨٨٣ نسمة .

أى أن الزيادة فى أربع وثمانين سنة بلغت ١١٤٨٣٨ نسمة .

ثانياً : تقسيم القاهرة :

قسمت القاهرة إلى أقسام ، وكل قسم يسمى بـ (الثمن) كالآتى :

ثمن الأزبكية — ثمن باب الشعرية — ثمن الجمالية — ثمن عابدين — ثمن درب الجماميز — ثمن الدرب الأحمر — ثمن الخليفة — ثمن قوصون — ثمن بولاق — ثمن مصر العتيقة .

ثالثاً : طوائف القاهرة وعدد المشتغلين بها(٢):

١٠٥٣ جزارين وتوابعهم — ١٥٧٩ زياتين وخضرية نواشف .

١٠٢٥ فكهانية — ٢٢٩ فطاطرية — ١٥٠ دقاقين بن وعطريات

---

(١) تجاوزت عن فهرسة هذا التذييل لعدم اتصاله بالسيرة الذاتية وذكرته هنا لتقديم صورة القاهرة فى عهد على باشا مبارك .

(٢) استعنت فى إيراد هذه الإحصائية بكتاب الخطط التوفيقية ج ١ ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ ط الهيئة العامة سنة ١٩٨٠ .

٥٨٥ قرازين ناسج الحرير — ٦٩٤ طباخين وسفرجيه — ١٠٣٩ حمارة — ٧٣٦ مزينين .

٤٩١ منجدين — ١٢٣١ خياطين أولاد عرب — ٤٤٤ عقادين

٣٤ خياطين أروام — ١٧٢ بلغاتية وإسكافية — ٢٨٥ جيارة

٦٨٩ نحاتين حجر — ١٦١٠ بنائين — ٦٤ قراتية — ٢٧ مرخمين شوام

٢٨ أروام (صناع كراسى) — ٣٣٧ أقباط ويهود (صناع كراسى)

١٣ شبكشية — ٤٦ مسلكاتية — ٢٠٨ غرابلية — ٥٠ نجارين طواحين

٢٥ نجارين سواقى — ٢٦٢ نشارين — ٧٩٢ حدادين وبرادين — ١٤٨ قضاصين

٥٨٩ مبيضين خيطان — ٢٧ سيوفية — ٢٤٧ مبيضين نحاس

١١٧٦ صرماتية — ٤٤٥ لبانة وقشاطة — ٣٤٥ حصرية

٧ شغالين منشات — ٥١٣ مدابغية — ٣٦ رفائين شيلان وتاراتية

١٨١ نجارين مراكب — ٦ شغالين نشا — ١١٥٥ جرايرية

٧٢ خيمية — ٣٥٥ نقاشين — ٥٣ ساعاتية — ٥١٣ سروجية

١٣٥ شغالين أسلحة — ٢٨٣ جزمجية — ١٧ خرازين صينى

٣٢٤ قلافطية — ١٧٤ قفاصة — ١٩٣ طرشجية — ٩٨ صنادقية

٧٨٢ خبازين — ١٤٠ مناخلية — ٩٦٥ صباغين — ١٢٧ كتبية ومجلدين

١٢٦ آلاتية — ٢٧ تلاحمة شغالين سبح — ١٦١٥ نجارين دق

٢٥ سباكين رصاص — ٨٦ طبالين وزمارين — ١٠١ جواهرجية أرمن

٧٨ أمشاطية — ١٠٦ جواهرجية مسلمين — ٢٦٨ سمكرية

٣٢٦ مبلطين — ٣٩ حكاكين أختام — ٢٣٠ مرخمين

١٥١ بياطرة وجنابطة — ٥٨٩ طحانين — ١٥ صدفجية

٨٦ نجارين عربات — ٥٩٤ ترابة وقنواتية — ٩٨ خراطين

٣٨ برملجية — ٢٢ غواصين آبار

رابعاً : ليالى القاهرة(١) :

وقد كان أهم ما شغل أهل القاهرة فى ذلك الوقت من حفلات الطرب، حفلات الذكر والموالد ، وما كان ينشد فيها من الأناشيد الجميلة — وكانت تقام تلك الحفلات فى البيوت أو المساجد أو الزوايا .

وكثرت فى شهر رمضان فى بيوت رؤساء الطرق الصوفية ، ولا سيما بيت السادة البكرية بالقاهرة . فأقاموا أجمل الحفلات، وكان يؤمها الناس لسماع مشاهير الفقهاء المقرئين يتلون آيات القرآن الكريم ، أو كبار المطربين أو المنشدين الذين يترنمون بإنشاد سيرة النبى ﷺ .

وكان يتلهى القاهريون فى المقاهى الشعبية بسماع قصص «الأمير حمزة» « والظاهر بيبرس » « وعنترة بن شداد » « والأمير سيف بن ذى يزن » . ولما نمت الأزبكية فى أيام إسماعيل اجتذبت قهاوى الرقص والغناء وغيرها من أماكن اللهو جمهوراً كبيراً من رواد القهاوى البلدية ، وظهرت طائفة من المهرجين الفكهين من أمثال «أحمد الفار» ، و « السيد قشطة » وكانوا يحيون ليالى الأسبوع كلها فى أحياء مختلفة ، وكان الجمهور يقبل عليهم ؛ ويتجشم مشاق السير على الأقدام مسافات طويلة ليستمتع بفكاهاتهم اللطيفة. وكان لكل بيت من بيوت الطبقة الوسطى منظرة يجتمع فى إحداها أصدقاء الحارة ، فيسمرون فيها السمر اللطيف ، أو يحيون بعض الليالى فى سماع القرآن ، أو حفلة طرب ، ولم تكن المقاهى قد انتشر وباؤها فى كل مكان . وكان الموسرون من أهل الحرف والصناعات يتبارون فى اقتناء أنواع الحمير الحصاوية أو القبرصية ، وعنوا ببرادعها وشماتها ، وأنفقوا عليها بسخاء . وكانوا من عادتهم أن يمتطوا حميرهم أو جيادهم فى أيام الخميس والجمعة والأحد لزيارة الإمام الشافعى . أو لزيارة المحمدى ، أو للتبرك بضريح السيدة نفيسة .

(١) كتاب القاهرة ، عبد الرحمن زكى ، مطبعة حجازى ١٩٣٥ م .

فهرس الأعلام

(ا)

إبراهيم باشا أحمد : ٥٧
إبراهيم بك رأفت : ١٤ ، ١٥
إبراهيم افندى رمضان : ١٥ ، ١٦
إبراهيم الروجى (جد على مبارك) : ٣
إبراهيم باشا محمد على : ١٨ ، ١٩
ابن مقلة : ٤٨
أبو حنيفة النعمان : ٤٦
أبو عمر : ٤
أحمد أبو خضر : ٥
سيدى أحمد البدوى : ٥
أحمد افندى خليل : ٣٧
أحمد باشا طوبسقال : ٣٠
أحمد عرابى : ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠
أحمد بك فايد : ١٥
أحمد باشا المناكلى : ٢٨
أدهم باشا : ٣٤ ، ٣٦
إسماعيل (الخديوى) : ٣٩ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٠
إسماعيل باشا صديق : ٥٥
إسماعيل باشا الفريق : ٣٤ ، ٣٨
إسماعيل باشا الفلكى : ٢٥
إلهامى باشا : ٢٦

(ب)

بارنج الإنجليزى : ٦٠
البحالصة : ٣
برعى افندى : ١٢ ، ١٣
برنستون بك : ٢٠

(ت)

توفيق (الخديوى) : ٥٧ ، ٦٠ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠

(ج)

جاليس بك : ٢١ ، ٢٢ .
جلبى افندى الكاشنى : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢
جمال الدين (الكاشف) : ٢٣

(ح)

حسن باشا المناسترلى : ٢٠ ، ٣٠
حسين بن إبراهيم : ٢٥
حسين كامل باشا : ٥٦ ، ٥٧
حماد بك عبد العاطى : ١٨ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٠

(خ)

خالد باشا (مأمور سوق العساكر) : ٢٩

(د)

داستون (مسيو) : ٦٦ ، ٧٠
دابلنيير الفرنسى : ٦٠

درويش باشا : ٦٩
الدرى (كاتب المحكمة) : ٣١
دقلة افندى : ١٥

(ر)

راغب افندى : ٣٠
رياض باشا : ٥٧ ، ٦٠

(س)

سرور افندى : ٤١
سعيد باشا . ٢٧ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٩
سلامة باشا : ١٦
سليمان بن إبراهيم الروجى : ٣
سليمان باشا الفرنساوى : ١٦ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣

(ش)

شريف باشا : ٤١ ، ٦٠ ، ٦٨ ، ٧٠

(ط)

طائل افندى : ١٥

(ع)

عباس باشا (الخديو) : ١٩ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢
عبد العال أبو سالم : ٧
عثمان باشا رفقى : ٦٧
عصمت افندى (ناظر مكتب الخانقاه) : ١٢
على باشا إبراهيم ١٨ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٣٦ .
على افندى الدرنده لى : ٣٧
على مبارك ٢١ ، ٢٣ ، ٧٧
عنبر افندى : ٨٠

(غ)

غيطاس : ٣

(ل)

لامبير بك (يوسف) : ١٦ ، ٢٤ ، ٢٥

(م)

مالطبرون الفرنسى (مالت بريم) : ١٨
مبارك بن سليمان بن إبراهيم الروجى : ٣
مبارك بن مبارك بن سليمان : ٣
سيدنا محمد ﷺ : ٧٧

(م)

محمد بك أبو سن ١٥
محمد باشا توفيق (انظر الخديوى توفيق)
محمد على : ١٨
محمد مبارك (الحاج) : ٣
محمود سامى البارودى : ٦١
محمود باشا الفلكى : ١٥ ، ٢٥ ، ٥٣
مصطفى باشا رياض : ٧٧
مصطفى باشا فاضل : ٤٣
موجيل بك : ٢٤

(ن)

نوبار باشا : ٥٨ ، ٧٧ .

مراجـــع التعليق

١ — بهجة المشتاق فى بيان حكم زكاة أموال الأوراق : شهاب الدين الحسينى الشافعى،القاهرة ، مطبعة كردستان العلمية،١٣٢٩ هـ (١٩١٠ م) .

٢ — تاريخ حياة المغفور له على مبارك باشا : الدكتور محمد بك درى الحكيم ، مصر ، المطبعة الطبيــة الدرية ، سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٤ م) .

٣ — تاريخ مصر من الفتح العثمانى إلى قبيل الوقت الحاضر : عمر الإسكندرى ، وسليم حسن ، مصر ، مطبعة المعارف سنة ١٩٢٤ .

٤ — ترجمان عربى تركى لاتينى : إبراهيم ناشد ، سنة ١٩٦٦ .

٥ — الرتب والألقاب المصرية : أحمد تيمور باشا ، مصر ، دار الكتاب العربى ، سنة ١٣٦٩ هـ (١٩٥٠ م) .

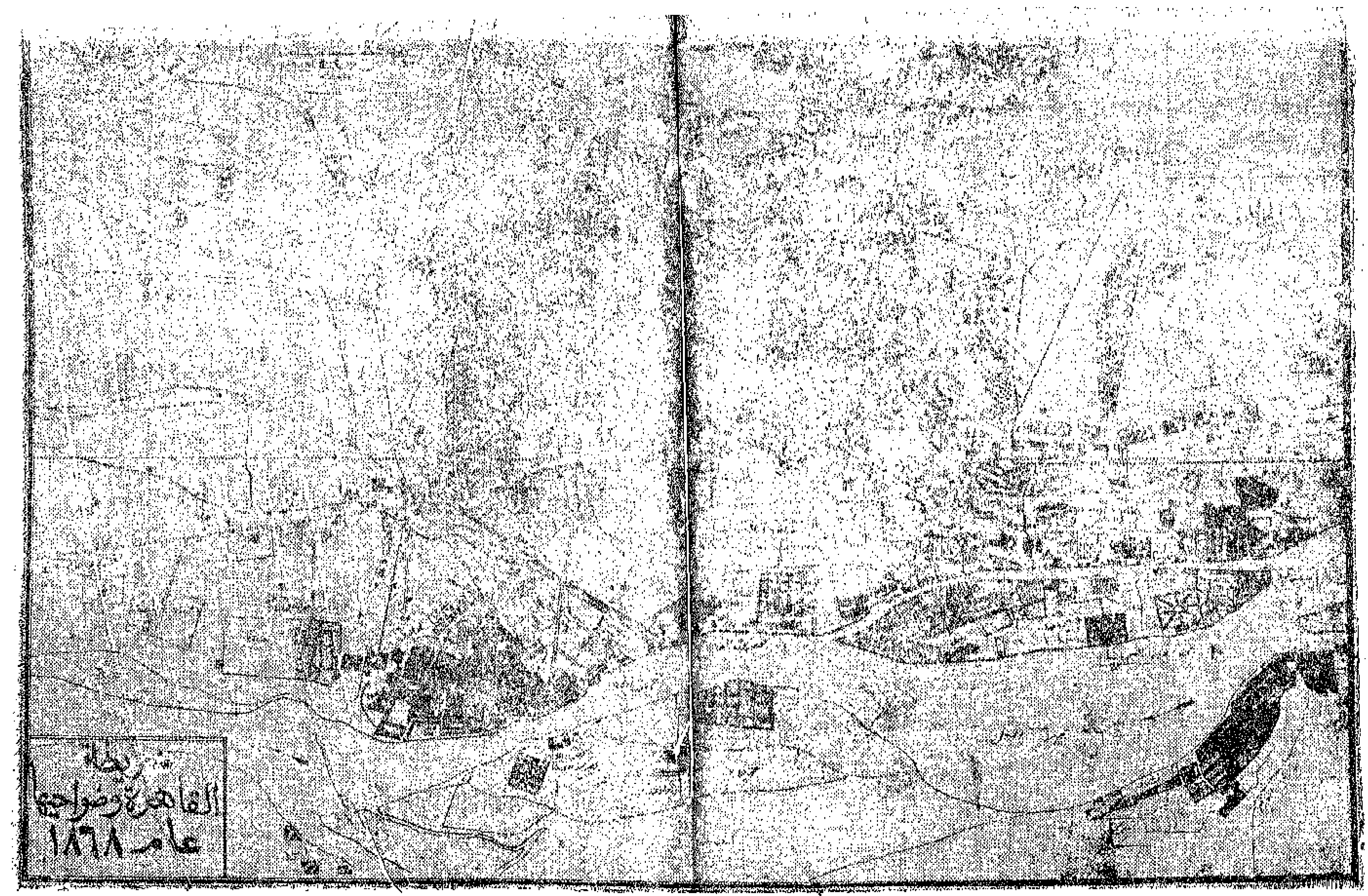
٦ — على مبارك حياته ودعوته وآثاره : محمـــود الشرقاوى ، وعبد الله المشد ، مصر ، مكتبة الأنجلو المصريه ، سنة ١٩٦٢ .

٧ — على مبارك أبو التعليم : د. حسين فوزى النجار ، سلسلة أعلام العرب رقم ١٢٩ ، مصر ، الهيئه العامة للكتاب سنة ١٩٨٧ .

٨ — على مبارك مؤرخ ومهندس العمران : د. محمد عمارة ، مصر ، دار الشروق ، سنة ١٤٠٨ هـ (١٩٨٨ م) .

٩ — القاموس الجغرافى للبلاد المصرية : وضع وتحقيق محمد رمزى مصر ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ســـنة ١٩٥٣ — ١٩٥٤ .

١٠ — كنز اللغة العثمانية : مصطفى أفندى سليمان زاده ، بيروت ، مطبعة الآداب ، سنة ١٨٩٠ م .



١ باب الحديد ٢ جامع الحاكم ٣ باب النصر ٤ باب الغريب ٥ باب المحروق ٦ باب الوزير ٧ ميدان الرميلة ٨ باب العزب ٩ جامع السلطان حسن ١٠ جامع قلاون ١١ جامع محمد على ١٢ بئر يوسف ١٣ قصر الجوهرة ١٤ باب القرافة ١٥ باب السيدة ١٦ باب طولون ١٧ جامع طولون ١٨ قصر الهامى باشا ١٩ جامع المارستان ٢٠ جامع المؤيد ٢١ قنصلية انجلترا ٢١ قنصلية هولندا ٢٣ قنصلية اليونان ٢٤ قنصلية إيطاليا ٢٥ قنصلية السويد ٢٦ قنصلية بروسيا ٢٧ فندق الشرق ٢٨ قنصلية فرنسا ٢٩ فندق المساجيرى ٣٠ قنصلية البرتغال ٣١ قنصلية روسيا ٣٢ قنصلية النمسا ٣٣ فندق النيل ٣٤ قصر الأمير حليم باشا ٣٥ باب اللوق ٣٦ باب الشيخ ريحان ٣٧ باب السيدة زينب ٣٨ باب أيوب بك ٣٩ معمل ملح البارود ٤٠ وابور المياه البخارى ٤١ شركة الغاز ٤٢ المرصد ٤٣ فندق اوربا ٤٤ ورش السكة الحديدية ٤٥ المسبك ٤٦ الترسانة ٤٧ الطواحين ٤٨ إدارة المحافظة والحكمة ٤٩ قصر الأمير أحمد ٥٠ الكنيسة الانجليزية ٥١ الكنيسة القبطية ٥٢ مستشفى قصر العينى ٥٣ المستشفى اليونانى ٥٤ فندق التجارة ٥٥ فندق فرنسا ٥٦ فندق اسطفان ٥٧ بيت قنصل فرنسا ٥٨ فندق السفراء ٥٩ النادي الشرقى ٦٠ قهوة الالدرادو ٦١ نادى جلوب.

فهرس الأماكن والمواضع

(ا)

الإبراهيمية (ترعة) : ٦٤
أبو حماد : ٣٥
أبو زعبل : ١٤
أبو كبير : ٧ ، ٨
الأخماس : ٧٢
الاخيوة : ٥
ارضروم (مدينة) : ٢٩
الأزبكية : ٥٣
الأزهر (انظر) الجامع الأزهر
اسبتالية القصر العيني : ٦٢
الاستانة : ٣٢ ، ٣٣ ، ٦٩
الإسكندرية : ٢٢ ، ٢٨ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢
الإسماعيلية : ٥٣ ، ٧٥
أسوان : ٢٣ ، ٣٥
أسيوط : ٢٣ ، ٤٤
إطفيح : ٥٤ ، ٧٥
الأناضول : ٢٩
انجلترا : ٦٠
أوربا : ٢٠ ، ٢٧ ، ٣٤ ، ٣٨

(ب)

باب الشعرية : ٤٤
باب الفتوح : ٥٣
باب اللوق : ٥٣
باريس : ١٨ ، ٤١
الباسوسية (ترعة) : ٦٣ ، ٧٥
بقبيت : ٧٢
البحر الأسود : ٢٩
بحر الشرق : ٣٩ ، ٤٠ ، ٦٤
البحر الصعيدى : ٧٥
البحر الصغير : ٧٢ ، ٧٥
بحر طناح : ٣
بحر الغرب : ٣٩ ، ٤٠ ، ٦٤
بحر الغرق : ٧٣
بحر مويس : ٧١ ، ٧٥
بحر النزلة القديمة : ٧٣
بحر يوسف : ٦٤
البحيرة : ٢١ ، ٦٥ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦
بحيرة الطبلية : ٧٢
برزخ السويس : ٧٠
برنبال الجديدة ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٢١
بروسيا : ٥٥
بنك روتشلد : ٥٨

بنها : ٤٤
بنى سويف : ٤٤ ، ٧١ ، ٧٢
بنى عياض (قرية) : ١٠
بور سعيد : ٤١
بولاق : ١٣ ، ١٥ ، ٦٢ ، ٨٠
البولاقية (انظر) قنطرة البولاقية

(ت)

ترابزان (مدينة) : ٢٩
ترعة الإبراهيمية : ٥٤، ٧١ ، ٧٤
ترعة أبى المنجى : ٧٢
ترعة الإسماعيلية : ٥٤ ، ٦٢ ، ٧١
ترعة أم سلمة : ٧٢ ، ٧٥
ترعة الإيراد : ٧٢
ترعة الحمراء : ٧٢
ترعة الخضراوية : ٧٥
ترعة الخطاطبة : ٦٦ ، ٧٠ ، ٧٥
ترعة الرمادى : ٧٤
ترعة الساحل : ٧٢ ، ٧٥
ترعة سليم : ٧٢
ترعة القرطامية : ٧٢
ترعة كوم بتين : ٧٢
ترعة المنصورية : ٧٥
التل الكبير : ٧٠

(ج)

الجامع الأزهر : ١٠ ، ٤٦
جرجا : ٧٣
جزيرة الطيرية : ٧٢
جسر قشيشة : ٧٢
الجمالية : ٤٤
جنينة الانتيكخانة : ٦٢
الجيزة : ٣٦ ، ٦٢ ، ٧٤ ، ٧٥

(ح)

حلوان : ٦٢
الحماديين : ٤
حوض الجرنوس : ٧٣
الحوض السلطانى : ٧٣
حوض الطهناوى : ٧٣

(خ)

الخضراوية : ٧٢
الخطاطبة : ٦٦، ٧٠ ، ٧٥
الخليج (قرية) : ٣
الخليج المصرى : ٧٥

(د)

دار العلوم : ٤٦ ، ٧٨ ، ٨٠
دار الكتب : ٤٧
الدراكسة : ٧٢
درب الجماميز : ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٧
الدقهلية : ٦٣ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦
دموه : ٣
دمياط : ٢١ ، ٢٢
الدولة العثمانية : ٢٩
ديوان الأشغال : ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٢

٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ،
٦٠ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧٣ ،
٧٤ ، ٧٥ ،
ديوان الأوقاف : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ،
٥٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨
ديوان البحرية : ٦٨
ديوان الجهادية : ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٨
ديوان الداخلية : ٥٧ ، ٦١ ،
٧٠ ، ٧٧
ديوان السكة الحديدية : ٤٢ ،
٤٣ ، ٥٥
ديوان المالية : ٧٧
ديوان المدارس (انظر) ديوان
المعارف
ديوان المعارف : ٤٢ ، ٥٠ ، ٥٥ ،
٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٧٧
ديوان المكاتب الأهلية : ٥٦

(ر)

رصيف السويس : ٦٢
روضة البحرين : ٧٥
رياح البحيرة : ٦٥
رياح الغربية : ٧١
رياح المنوفية : ٤٠ ، ٧١

(س)

سد أبي قير : ٧٢
سراى البوستة : ٧٢
سراى عابدين : ٥٧ ، ٦٨
السكك الحديدية المصرية (انظر)
ديوان السكة الحديدية
سلخانة القاهرة : ٦٣
السودان : ٣٢
السويس : ٤١ ، ٥٤
السيدة زينب : ٥٢ ، ٨٠
السيوفية : ٤٤ ، ٨٠

(ش)

شارع محمد على : ٥٣
شبرى (شبرا) : ٦٢
الشرقاوية : ٧١ ، ٧٥
الشرقية : ٤ ، ٤٥ ، ٦٢ ، ٦٣ ،
٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥
شركة خليج السويس : ٤١
شلال أسوان (انظر) أسوان
شوارع الأزبكية (انظر)
الأزبكية

(ص)

صان الحجر : ٦

(ط)

طرة : ٢٠ ، ٣٥
طنطا (طندتا) : ٥٠

(ع)

عابدين : ٥٣

العباسية : ٤٣
عرب الخيش : ٤
عرب السماعنة : ٤
العطف : ٦٥ ، ٦٦
(غ)
الغربية : ٦٤ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦
(ف)
الفجالة : ٥٣
فرنسا : ١٦ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٤١ ، ٥٥ ، ٦٠
الفيوم : ٧٣
(ق)
القاهرة : ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢
القربية : ٤٤
القرم : ٢٨
القرينين : ٧٥
القسطنطينية : ٢٨
قصر النيل : ٣٥ ، ٥٤ ، ٧٢
قلم الترجمة : ٨٠
القليوبية : ٦٣ ، ٧٢ ، ٧٥
قنا : ٧٣
القناطر الخيرية : ٢٤ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٧٦
قناطر النعناعية : ٧٢
قنطرة أشمون : ٦٢
قنطرة بسيون : ٧٢
قنطرة البولاقية : ٦٣
قنطرة ترعة الساحل : ٧٢
قنطرة الزوامل : ٦٢
قنطرة الشرقاوية : ٦٢
قنطرة كفر الحمام : ٦٢
قنطرة المحلة : ٦٢
(ك)
الكتبخانة (انظر) دار الكتب
الكردى (قرية) : ٥
كفر الدوار : ٦٩
كموشخانة (مدينة) : ٢٩
كوبرى قصر النيل (انظر) قصر النيل
الكوم (ناحية) : ٣
(ل)
لوندرة : (لندن) : ٥٨
(م)
المحمودية : ٦٦ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٥
مدرسة أبى زعبل : ١٤ ، ٢١
مدرسة الإدارة : ٨٠
مدرسة أسيوط : ٨٠
مدرسة البنات بالسيوفية : ٨٠
مدرسة بنها : ٨٠
مدرسة بنى سويف : ٨٠
مدرسة الجمالية : ٨٠
مدرسة الحسينية : ٨٠
مدرسة دار العلوم : ٨٠
مدرسة الزقازيق : ٧٢
مدرسة شيخون : ٨٠

مدرسة الطب : ٦٢
مدرسة طرا (انظر) طرة
مدرسة طنطا : ٥٩
مدرسة عابدين : ٨٠
مدرسة العقادين : ٨٠
مدرسة العمليات : ٨٠
مدرسة الفشن : ٨٠
مدرسة القربية : ٨٠
مدرسة القزلار : ٨٠
مدرسة قصر العينى : ١٠ ، ١٢ ، ١٤
مدرسة المحاسبة : ٨٠
مدرسة مصر القديمة : ٨٠
مدرسة المنصورة : ٥٩
مدرسة المنيا : ٨٠
مدرسة المهندسخانة (ببولاق) ١٠٥ ، ٣٨
مدرسة النحاسين : ٨٠
مريوط : ٣٦
مستشفى الغربية : ٧٣
مستشفى المنصورة : ٧٣
مصر : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٧ ، ٥٧
مصرف جرزة : ٧٥
مصلحة الانجرارية : ٦١
مصلحة الدومين : ٥٨
مصلحة توزيع المياه بالقاهرة : ٦٢
مصلحة الهندسة : ٦١
المطرية (بالمنزلة) : ٦
مكتب باب الشعرية (انظر) باب الشعرية
مكتب البنات بالسيوفية (انظر) السيوفية
مكتب الجمالية (انظر) الجمالية
مكتب القربية (انظر) القربية
المناجاة (قرية) : ٦
المنزلة : ٦
المنصورة : ٧٣
المنصورية : ٧١
منفلوط : ٢٣
المنوفية : ٦٤ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦
المنيا : ٤٤ ، ٦٤ ، ٧٣
منية طريف : ٦
منية العز : ١١ ، ١٢
منية القمح : ٨
منية النبروط : ٧
الموامنة : ٣
ميت سويد : ٧٢
ميتس (بفرنسا) : ١٦ ، ١٨
مينا الإسكندرية (انظر) الإسكندرية

(ن)

النجيلة : ٧٢
نظارة عموم الأوقاف (انظر) ديوان الأوقاف
نظارة القناطر الخيرية (انظر) القناطر الخيرية
النمسا : ٥٥
نهر السين : ٤٢

(هـ)

هويسات الإسماعيلية : ٦٢

(ى)

اليوسفى : ٦٤

الفهرس الموضوعى لسيرة حياة على مبارك

ص	
٣	قريته وأصوله الأولى
٤	بداية تعلمه — والده
٥	دخوله الكتّاب
٦	هروبه
٧	كاتب الحسابات — لقاؤه بمأمور أبى كبير
١١	دخوله كتّاب منية العز — إعادته إلى المنزل مختطفاً
١٢	هروبه وعودته إلى كتّاب منية العز — دخوله مدرسة قصر العينى
١٣	مرضه — استمالته لترك المستشفى وعودته إلى المنزل
١٤	شفاؤه — دخوله مدرسة أبى زعبل
١٥	دخوله مدرسة المهندسخانة
١٦	سفره إلى فرنسا
١٧	تعلمه اللغة الفرنسية
١٩	عودته إلى مصر
٢٠	تعيينه بمدرسة طرا
٢١	زواجه الأول وزيارته لأهله
٢٣	لقاؤه بالخديوى عباس سفره إلى الوجه القبلى
٢٤	إشرافه على ترتيب المدارس الملكية
٢٧	تولية سعيد باشا ولاية مصر
٢٨	سفره إلى تركيا (حرب القرم)
٢٩	إقامته فى الأناضول
٣٠	حكاية زواجه الثانى - مشاكله مع أهل زوجته
٣٤	تعيينه بديوان الجهادية
٣٦	تعيينه معلماً لتعليم الضباط
٣٨	زواجه الثالث — اشتغاله بالتجارة
٣٩	وفاة سعيد باشا وتولية الخديوى إسماعيل — تعيين على مبارك نظارة القناطر الخيرية
٤١	تعيينه فى المجلس المشكل لتقدير أراضى شركة خليج السويس — إشرافه على ديوان المدارس — سفره إلى باريس
٤٢	إشرافه على دواوين السكة الحديد والمدارس والأشغال والأوقاف
٤٤	إنشاء المدارس فى مدن القطر
٤٥	إنشاء مطبعة حروف

ص		ص	
٤٦	إنشاء مدرسة دار العلوم	٦٢	بناء سبخانة القاهرة ومدرسة الطب واسبتالية قصر العيني — تنظيم شوارع القاهرة
٤٨	إنشاء دار الكتب	٦٧	الثورة العرابية
٤٩	التوسع في إنشاء المدارس	٦٨	المفاوضات مع عرابي
٥١	صيانة بنايات الأوقاف	٦٩	بداية الاحتلال الإنجليزي
٥٢	إقرار نظام مقدم الإيجار لأراضي الوقف	٧٠	هزيمة أحمد عرابي
٥٣	تنظيم شوارع القاهرة	٧٧	وزارة مصطفى باشا رياض
٥٤	إنشاء كوبري قصر النيل	٧٨	مؤلفات علي مبارك
٥٧	تعيينه مستشاراً في ديوان الأشغال — لجنة الدين	٧٩	وفاته — أعماله في مجال التعليم
٥٨	إنشاء مصلحة الدومين	٧٨	تذييل رقم ١
٥٩	الاضطرابات بين ضباط الجيش	٨٠	تذييل رقم ٢
٦٠	عمل لائحة سداد الدين — عزل الخديوي إسماعيل وتعيين الخديوي توفيق — المراقبة الثنائية	٨٢	تذييل رقم ٣
		٨٥	فهرس الأعلام
		٨٧	مراجع التعليق
		٨٨	خريطة القاهرة ١٨٦٨
		٩٠	فهرس الأماكن

رقم الإيداع ١٩٨٩/٣٢٩٧

